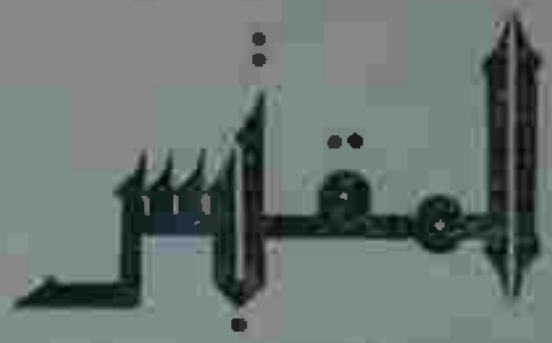

المقتبس

اوربا في سورية

حياة المرء سلسلة تختلف حلقاتها بين سوداء وبيضاء يحكم قبل ان يسعد بأمن بيض الليالي بتذوق سودها ليدخر قوة ومنعة ولا يقف اذ ذاك حائراً امام الشدائد قانطاً متذمراً بل متسلحاً ابداً ومتأهباً للمكافحة والنضال .

وناموس الافراد يشمل الامم والممالك كبيرها وصغيرها فما من دولة الا وكان لها من دهرها يومان يوم لها ويوم عليها . هذه صبرت فاعتبرت وفازت وتلك لم ترعو فتلاشت لخلفها من هو اقوى منها سنة الله في خلقه

اعتبر ذلك بدولتنا العلية التي اجتاحت الممالك ودوخت الامصار فاستنامت واستأمنت ولم تتأهب لمقاومة غدرات الزمان فقامت في وجهها الامم التي كانت خاضعة لها وكانت صدمة بل صدمات بين الشرق والغرب آلت الى تقهقرها وما كنا قبل نعرف للتقهقر معنى وفقدنا القرم ومولدافيا والافلاخ وبسربيا في عهد السلطان سليم الثالث واضطر محمود الثاني التسليم بمصر لمحمد علي . وكانت ايام عبد العزيز فضعضعت الدولة بتداخل الاوربيين وشق البلغار عصا الطاعة وفازوا باستقلالهم . وكان ما كان في ايام عبد الحميد من احتلال الدول لهذه الجزيرة وتلك الولاية واستقلال هذه الامارة وانسلاخ تلك حتى لم يبق من ممالك سليمان الكبير سوى شبح حاول الاحرار ان يجسموه فانتشلوا الدستور من اعين طاغية آخر القرن التاسع عشر وعمدوا الى الاحتفاظ به متخذين من الاتحاد الثلاثي سنداً وعوناً فاجأتهم احدى الصديقات بابتلاع البوسنة والهرسك فصاحوا وزمجروا ولكن لم يعتبروا فدهمتهم الصديقة الثانية باحتلال طرابلس الغرب لاعتقادها ان الدولة العلية لم تجاوز مع اتساع حدها الجمجمة وهي قريبة منها فما عساها

تعمل الآن مع ايطاليا وهي بعيدة عنها . كل ذلك وساسة البلاد لا يفكرون ولا يزالون ينتظرون حدوث عجيبة لاعتقادهم ان من تسلح بسلاح القانون لا يشك ان يتقي حسامه ضربة اعداء الاسلام الصريحة الناعمة .

وكأني بهم امام المحنة الاخيرة واقفين متأملين لا يجدون الا في حساب متوهمين ان أزمة طرابلس الغرب هي آخر حلقة من سلسلة حياة الدولة يعطون هذه العقدة ثم يستأمنون للدهر متعامين عن تقلبات سياسة اوربا الغالبة بناموس بقاء الاصلح تاركين البلاد عرضة للمحن باختلال احوالها وجهل اهلها وفقد الامن منها .

ففي صفحات التاريخ لاتجد بلاداً انتابتها صروف الدهر وتوالت عليها خطوب الزمان وكانت ميدان احتكاك المصالح فيها مثل بلاد الشرق . ونضرب صفحاً عن العقد الكثيرة التي لم تحل فيها بعد كالبلقانية والمكدونية والعربية ولنلق النظر فيما هو اقرب الينا اي سورية وفلسطين ففيهما من مطامع الدول ما لا يوجد في غيرهما من الولايات ويسوغ لنا ذلك القول :

كان نفوذ الدول الاوربية في سورية قليلاً جداً في أواسط القرن الماضي . وأبرمت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ فانفتح باب واسع لهذا النفوذ وكانت الجمعيات الدينية في ذلك العهد تنقل الى الشرق مدنية الغربيين فوجدت فرصة ملائمة وطرقت سورية وفلسطين بعد ما انتشرت بها دعوة التبشير الديني . وكانت فرنسا السابقة في هذا المضمار فعمرت بلادنا بالمعاهد الخيرية والتهذيبية بهمة جمعية اخوة المدارس المسيحية وجمعية « راهبات المحبة » ولا عجب فقد وثقت علاقتها مع الشرق منذ القرن السادس عشر بحمايتها فيه كاثوليك اوربا جميعاً . وكان مشروعها يرمي الى رقي سورية وانقاذها مما قام في سبيلها من المصاعب والمشكلات . ولم تغفل عن تأييد مصالحها في الشرق بكل الوسائل الممكنة على اختلاف الاحوال حتى في ايام حكومة الكونفانسيون والديركتوار والاضطرابات الداخلية قائمة على قدم وساق ولم يحد نابوليون عن سياسة فرنسا التقليدية في الشرق فشرع بعد ابرام الصلح مع الدولة العلية سنة ١٨٠٢ الى تجديد الامتيازات والمعاهدات القديمة وامر سفيره في الاستانة ان يبسط حمايته على كل كاثوليك سورية وفلسطين ولا سيما قوافل الزوار القاصدين الى الارض المقدسة .

وما كان يقتضي لهذا الامر مبالغ وافرة من المال اعتادت الحكومة الافرنسية تمد عمالها بالمال المطلوب . ولا تبخل بكل ما يلزم في سبيل ذلك قبل الامبراطورية الثانية

أي أن الحكومة أدخلت في ميزانية وزارة خارجيتها كمية تنفق سنوياً في الأعمال الخيرية والتهذيبية تبلغ نحو ٥٠٠٠٠ فرنك ، فأصبحت سنة ١٨٨٠ خمسمائة ألف وسنة ١٨٩٢ سبعمائة ألف وسنة ١٩٠٠ ثمانمائة ألف .

على أن الحكومة لا تشتغل وحدها في إنشاء المدارس وتنظيمها فهناك جمعيات أخرى قامت بالعمل نفسه . ففي سنة ١٨٥٥ أسست جمعية أعمال مدارس الشرق Œuvre des écoles d'Orient [illegible] تجمع مبلغ [illegible] وتوزعها على المعاهد الخيرية ومدارس الرهبانات في الشرق [illegible] ٠٠٠ [illegible] فرنك . ثم أخذ [illegible] في فرنسا [illegible] [illegible] الأسس الرابطة الاتحاد الإسرائيلي L'alliance Française الذي يوزع على المدارس السورية في [illegible] [illegible]

ولم يكن [illegible] الحكومة في فرنسا أدنى تأثير في حال المدارس السورية [illegible] [illegible] إلى أمر الاحتفاظ بالمعاهد [illegible] الخيرية والعلمية في الشرق [illegible] [illegible] الحكومة الافرنسية [illegible] [illegible] [illegible] في الشرق [illegible]

وفي سنة ١٩٠١ [illegible] ميزانية هذه المدارس [illegible] [illegible] الرهبانيات ٠٠٠ [illegible] فرنك ما عدا [illegible] مدارس الرهبانات الافرنسية التي لا تزال [illegible] [illegible] [illegible] الدولة [illegible] [illegible] [illegible] في أملاك الدولة العلية .

على أن [illegible] [illegible] الشرق [illegible] الحكومة الافرنسية [illegible] [illegible] توسيع ميزانية المدارس الشرقية [illegible] بحيث لا [illegible] [illegible] [illegible] الميزانية المرضية إلى حد [illegible] في ميزانية نظارة خارجيتها لسنة ١٩١١ تحت نمرة ٢٢ بموجب [illegible] [illegible] المعاهد الافرنسية في سورية وفلسطين [illegible] على الطريقة الآتية .

٥٠٠٠٠ فرنك لمدارس الرهبانات منها ٣٠٠٠٠ لمدارس العليا و ٦٠٠٠ للمدارس [illegible] و ٢٦٠٠ [illegible] للمدارس الابتدائية

و ٣٨٣٠٠٠ فرنك للمدارس [illegible] منها ١٥٢٠٠٠ للمدارس العليا و ١٣١٠٠٠

للمدارس الوسطى و٩٥٠٠٠ للمدارس الابتدائية

و٤٥٠٠٠ فرنك انفق على مدارس مختلفة و١٢٢٠٠٠ على المعاهد الطبية

وتأخذ المعاهد المدنية علاوة على ذلك ١٧٠٠٠٠ فرنك مساعدة من جمعية البعثة اللادينية (العلمانية) التي أسست سنة ١٩٠٢

مما ذكر يبدو للعيان ان فرنسا تسعى سعياً حثيثاً في تحسين مركزها في سورية ولا تبخل بالمال في سبيل ذلك ، ونعتقد انها قد لا تكتفي بمليون فرنك لازدياد نفوذ المانيا وايطاليا اللتين تعمدان بدورهما الى اقتلاع حماية الكاثوليك في الشرق الادنى من يدها ، ولا شك انها لا تتوقف عن كل ما شأنه المحافظة على اسم الجمهورية وشرفها

اما انكلترا فانها رافقت فرنسا في عمل نقل المدنية الغربية الى سورية وفلسطين . وكان المبشرون من الانكليز ينتشرون في المدن الكبرى وفي ربوع لبنان حتى اقصاها وينشئون المدارس والكنائس والمستشفيات للمرضى فعمت اللغة الانكليزية وراجت تجارة انكلترا وصناعتها وعظمت المنافسة بين النفوذ الانكليزي والفرنساوي . على انا لا ندري ما انفقته الحكومة الانكليزية على مدارسها ومعاهدها الخيرية في سورية اما فلسطين فقد عرفنا من اوثق المصادر انه ينفق عليها اربعمائة الف فرنك ولانكلترا في سورية اضعاف ما لها في فلسطين من المعاهد الخيرية وغيرها .

ودخلت النمسا سورية بعد انكلترا وفرنسا لاشتغالها عنها بالبلقان حيث كانت تسعى جهدها بتعزيز مركزها والبلقان مركز نفوذها دينياً وسياسياً . غير انها لما رأت ما احرزته انكلترا وفرنسا من النجاح التام في سورية ارتأت انها تقدم لتجارتها سوقاً جديدة وفازت بذلك بهمة جمعية الفرنسيسكان الدينية التي تنشر النفوذ النمساوي بهمة لا تبارى فتنشئ المدارس والمستشفيات للمرضى وبيوت العجزة وتجري الحفريات الاثرية وتبتاع الاماكن الثمينة بالنظر الى تاريخها المقدس

ولم نتمكن من الوقوف على كمية المبالغ التي تنفقها الحكومة النمساوية في سورية وفلسطين على مدارسها ومعاهدها الخيرية لابقائها ذلك في طي الكتمان فانترك للقارئ تقدير ذلك مع علمه ان النمسا تنفق على دار الزوار وحدها في القدس ١٣٠٠٠ كرون وذلك بموجب ميزانية وزارة خارجيتها واضف الى ذلك الاعانات العديدة التي يمد بها الاهالي جمعية الفرنسيسكان وما يدفعه الامبراطور فرنسيس يوسف من ماله الخاص . وهذا ما لا يمكن لاحد معرفة حقيقته .

اما ايطاليا فانها بعد اتحادها سنة ١٨٦١ فقد وجهت انظارها الى الشرق أسوة بغيرها من الدول الاوربية . وكانت الحكومة اذ ذاك فقيرة فخصصت في ميزانيتها اعتماداً زهيداً لا يتجاوز اربعين الف فرنك اعانة لكل المدارس الايطالية في الشرق .

وفي سنة ١٨٧٠ تقهقرت فرنسا في حربها مع بروسيا فطلبت ايطاليا ان تأخذ على عاتقها حماية الكاثوليك فلم تقبل فرنسا ان تتنازل عن حقوقها . وبلغت المنافسة من هذا الوجه معظمها سنة ١٨٨٣ فكانت ايطاليا تلح بطلب حماية المبشرين الايطاليين وفرنسا تعارضها لاعتقاد الاثنين ان في هذه الحماية ما يجعل لها شأناً عظيماً في هذه البلاد .

ولما كانت ايطاليا تبغي ايصال نفوذها الى اقصى درجاته فتحت اعتماداً في ميزانيتها للمدارس الشرقية لسنة ١٨٨٣ — ١٨٨٤ قدره ثمانون الف ليرة . وما كان هذا المبلغ يحسب عظيماً لو لم تكن ماليتها اذ ذاك في حالة يرثى لها . لكنها لم يتسن لها مع ذلك حماية المبشرين الايطاليين فقررت انشاء عدد كبير من المدارس المدنية وخصصت لهذه الغاية سنة ١٨٨٧ اعانة سنوية قدرها مليون ونصف من الفرنكات . غير انها لم تفلح في هذا المسعى لما يقتضيه التعليم المدني من النفقات الباهظة ولعدم تمكنها من ايجاد معلمين لهم خبرة كافية للقيام بمثل هذا العمل . فعادت تحاول سلب حقوق فرنسا بحماية الكاثوليك وأسست لهذه الغاية في فلورنسا « جمعية حقيقية لحماية المبشرين الطليان » فاضطرت فرنسا ان تتنازل عن بعض حقوقها واتفقت مع ايطاليا في سنة ١٩٠٥ على ان المعاهد الدينية مخيرة في حماية احدى الدولتين . فحدث اذ ذاك ان عدداً ليس بالقليل انحاز الى حماية ايطاليا وكان لهذا الفوز السياسي الباهر تأثير مهم في فرنسا اضطرب له الرأي العام ايما اضطراب .

ولم تكن ايطاليا بعد فوزها على فرنسا لتكتفي بالمليون والنصف من الفرنكات لأجل مدارسها فجعلت كل سنة تخصص مبالغ اخرى لمدارس الحكومة ومدارس الرهبانات التي انشأها الاكليريكيون المطرودون من ايطاليا بأمر الحكومة . وفي الخامس من تموز سنة ١٩١٠ صادق مجلس النواب على زيادة ميزانية المدارس السورية اربعمائة الف فرنك فاصبحت نحو مليونين ادخل منها في ميزانية نظارة الخارجية ١٣٥٠٠٠٠ فرنك وفي ميزانية لجنة الاستعمار ٥٥٠٠٠٠ وتقرر توزيع المبلغ من قبل نظارة الخارجية بمعرفة نظارة المعارف .

ولما التفتت ايطاليا الى الشرق كانت الدول قد رسخت اقدامها في سورية وفلسطين . على ان ايطاليا تمكنت من بسط نفوذها وتمكنت منها بسرعة لا توصف شأنها في كل حالاتها مع القوة الحية . وصارت تتطلع الى الامام بقدم ثابتة راغبة الا مدعوة للقيام بعمل حيوي لان الحياة والتاريخ يدعوانها لتكون صلة واصل بين الشرق والغرب وصلة روحية للشرقيين . ومما يذكره رجالها انها تقوم بهذا العمل احسن قيام قد رحت تنقل الى الشرق ما تقتبسه من الغرب من المدنية بواسطة عمال ملكيين وعسكريين ورجال دين واساتذة ومحامين ومهندسين الخ .

ولم يخفها ان حماية الكاثوليك في الشرق كانت [illegible] الاسباب الاولى التي [illegible] من كل ابنائها فأعلنت تسعى للحصول الى حقوق حماية الكاثوليك الايطاليين واول عمل قامت به قبل [illegible] التأسيس [illegible] وتعهدت [illegible] الكاثوليكية الشرقية . وكانت بعد ذلك سياسة الامبراطور في بلاد الشرق فقال [illegible] وزير خارجية ايطاليا في مجلس الامة : نحن بعيدون عن فكرة حماية كل المسيحيين في الشرق لكن حماية الكاثوليك الايطاليين من حقوق الامبراطور دون منازع . ولم تعارض فرنسا في التنازل عن حقوقها لايطاليا ...

وفي هذه السنين الاخيرة بذلت ايطاليا جهداً [illegible] انشئت كثيراً من المدارس الابتدائية وعدة مدارس عالية ومدرسة كاثوليكية في القدس وغيرها من صناعية ومستشفيات وغيرها كل هذا في سبيل التأثير على الجمعيات الكاثوليكية والاجنبية الايطالية ومن العمال الاجنبية التي تستمد قوتها من الاتحاد الفاشستي العام . وعقدت الحكومة [illegible] فشجعت الاتحادات الجمعيات على [illegible] روح الثقافة [illegible] . وما عدا ذلك فقد خصصت اعتماداً في ميزانيتها قدره ٥٠٠٠٠٠ ليرة [illegible] في سورية وفلسطين بمعرفة وزارة الخارجية .

ولم تغفل روسيا عن مساعي الدول الاوربية في سورية وفلسطين واخراج الجمعيات التبشيرية . وكان الشرق الارثوذكسي قد اعتاد [illegible] ان يعتبر روسيا حامية له في ايام المحن . واعترفت لها الدول بذلك بواسطة معاهدات دولية كانت نتيجة حروب دامت [illegible] . ولم يسعها الا الاقدام على مجاراة الدول الاوربية بتأييد مركزها في الشرق فانشأت لهذه الغاية مقاطعة روسية في القدس [illegible]

ان باشرت سنة ١٨٤٣ بفتح المدارس وانشاء المعاهد الخيرية وفي سنة ١٨٥٨ بعد انتهاء حرب القرم [illegible] في مدينة [illegible] اعمالها

على ان سفارتها لم يكن في وسعها مباراة الجمعيات الاجنبية نظرًا لحرج المركز الذي لا يسمح لممثل الحكومة ان يتوسع في العمل وادت الحاجة الى تأسيس جمعية خصوصية مستقلة بمركز رسمي [illegible] الارساليات الاجنبية تطلق يدها في العمل بدون خوف وهكذا كان

في سنة ١٨٨٢ وضع الاساس للجمعية [illegible] الارثوذكسية التي أُطلق عليها سنة ١٨٨٩ اسم الامبراطورية [illegible] جمع الاحسان من الشعب الروسي الذي يعتقد ان [illegible] الاقليمية [illegible] . وباشرت الجمعية بانشاء المدارس وصادفت صعوبات شتى [illegible] الجمعيات الاوربية لان [illegible] كانت بدت من حيث لم [illegible] من الاكليروس اليوناني الذي يكره الروسيين مصدر ثروته وعلاه على ان الجمعية كانت تصرف [illegible] الزوار الروسيين فسهلت لهم سبل الوصول الى الاراضي المقدسة وابتنت لهم الابنية في القدس الشريف وسواها وانشأت عدة مستوصفات لهم وللتلاميذ مدارسها كل ذلك والحكومة الروسية لم تنفق بارة واحدة بل كان الشعب الروسي [illegible] مصدر هذه النفقات الوحيد

وفي سنة ١٨٩٢ [illegible] كل اعمال الجمعية وما [illegible] في العشر سنوات التي مضت [illegible] انها نجحت وزادت الزوار كثيرًا وآوت بعض اولاد الارثوذكسيين [illegible] بالمساعدة [illegible] وحق لها ان تكسب ثقة الحكومة الروسية ولما كان عدد الزوار يزداد من سنة الى سنة والمدارس لا تسد كل الحاجة والاحسانات لا تقوم بكل [illegible] من النفقات طلبت الجمعية من الحكومة اعانة قدرها سنة ٦٠٠ روبل الى ٨٠٠٠٠ [illegible] رئيسها الغراندوق سرجيوس [illegible] الحكومة [illegible] هذا [illegible] بين كل ما تملكه الجمعية من عقار وغيره ما تبلغ قيمته مليوني روبل [illegible] في تلك [illegible] . ولم يبق للجمعية الا ان [illegible] عملها مكتفية بالاحسانات من الشعب الروسي ولكنها عادت سنة ١٨٩٥ وطلبت من الحكومة ان [illegible] لانها [illegible] على المدارس السورية التي انشأتها بطلب من البطريرك [illegible] يريدون [illegible] الحكومة عنها [illegible] المذكورة ادخلته [illegible] المجمع المقدس على [illegible] السفارة الروسية في القدس .

ولما لم يكن في الامكان متابعة العمل حسبما تقتضيه الاحوال بدون مساعدة كبيرة طلبت من الحكومة ثمانين الف ليرة تقبضها دفعة واحدة لتحسين امورها وتستوفى من الاعتماد المذكور اعلاه في مدة عشرين سنة . فقبلت الحكومة بذلك وتكون الجمعية لم تحصل على مطلوبها الا بعد مضي عشر سنوات وبشرط ابقاء المبلغ اقساطاً سنوية . والامر الغريب ان الحكومة لم تنقدها المبلغ من مال الخزينة بل من ريع املاك بسرايا التي تديرها الحكومة ووفت الجمعية وعدها . لكن الحرب اليابانية قللت من مداخيل الاحسان فلم تعد تستطيع وفاء دينها فأجلته الى سنتين ثم الى ثلاث واخيراً اضطرت الى عدم الاحتفاظ بكل المعاهد التهذيبية والخيرية التي انشأتها وصرحت للحكومة بانها تضطر والحالة هذه الى حصر اعمالها في دائرة ضيقة فتهدم ما بنته في سنين عديدة . فارسلت الحكومة مفتشين الى سورية وفلسطين فحصوا اعمال الجمعية وشهدوا بما تؤديه من المنافع الجمة للزوار الروسيين وللمدارس الارثوذكسية فتقرر ايجاد مبلغ يدخل بصورة قانونية في ميزانية نظارة الخارجية فتنفقه الجمعية على تحسين المدارس في سورية وفلسطين بحيث تفي باحتياجات الاهلين نظير المدارس الاوربية في هذه البلاد . ومن هنا نستنتج ان الجمعية الفلسطينية الروسية انشأت معاهدها في هذه البلاد دون ان تساعدها الحكومة بشيء بعكس ما رأيناه في امر المدارس الاوربية الاخرى . وانها لم تحصل على الوعد بالمساعدة المنظمة القانونية الا بعد مضي ٢٩ سنة على تأسيسها

هذا شيء عن حالة اوربا في سورية بسطناه للقارئ وله ان يستنتج ما عسى ان يكون مستقبل هذا الوطن المحبوب اذا لم تبادر الحكومة الى ازالة كل ما من شأنه حمل الدول الاوروبية على التدخل في شؤوننا . وما هي الا ساعة ذلك ان شاء المولى الكريم وهو حسبنا ونعم الوكيل

وطني

اليمن وسكانها

تابع

خيرات اليمن

اجمع جغرافيو العرب ان اليمن الخضراء من اخصب الاقطار واكثرها ارزاقاً وخيرات حتى قال [illegible] ان اهلها يزرعون اربع مرات في السنة ويحصدون كل زرع في ستين يوماً . وقال بعضهم :

اليمن كلها [illegible] [illegible] وصنعاء [illegible] [illegible] [illegible] الهواء [illegible] يشتون مرتين ويصيفون مرتين واهل الجبال باليمن يمطرون الصيف كله ويصحون في الشتاء فيمطر صنعاء وما والاها [illegible] وبعض [illegible] من الزوال الى الغروب [illegible] [illegible] الغيث لانه لابد من المطر في هذه الايام

قال ابن الفقيه : واليمن من انواع الخصب [illegible] ما ليس في بلاد الاكاسرة والقياصرة وقد عمرت الروم وفارس [illegible] فيه [illegible] ولم يعمروا مثل غمدان ومأرب [illegible] [illegible] وسد [illegible] وصرواح ومرواح [illegible] وبينون [illegible]

قال الاصمعي [illegible] [illegible] الناس والكندر والعطر والعصب [illegible] من [illegible] [illegible] الطيلسان [illegible] [illegible] [illegible] الى الارض [illegible] [illegible] من [illegible] .
قال الاصمعي وكانت [illegible] من اليمن الى [illegible]

وذكروا من خصائص تهامة [illegible] [illegible] لا نظير له [illegible] [illegible] [illegible] من العصب وسد [illegible] [illegible] [illegible] صعدة وذكروا [illegible] صنعاء [illegible] [illegible] عدن [illegible] . ومن اراد [illegible] اشترى قطعة ارض [illegible] صنعاء [illegible] [illegible] صخرة [illegible]

درعا لم يخرج شيء منه . والعنبر يقع على حافة البحر من عدن الى عمان .

قال المقدسي اليمن معدن العصائب والعقيق والادم والرقيق والى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والاسكندروس (لعله السندروس) والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش والخدم وجلود النمور

مذاهب اليمن

كان عند ظهور الاسلام في اليمن من الاديان النصرانية واليهودية والمجوسية على رواية البلاذري وقد كتب الرسول عليه الصلاة السلام الى ملوك حمير وهم الحارث ابن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال وشرح بن عبد كلال والى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان . وكان المجوس في هجر واليمن . ودخل عامل اليمن في الدعوة الاسلامية قال ابن خلدون وهو باذان عامل كسرى واسلم معه اهل اليمن وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على جميع مخاليفها وكان منزله صنعاء كرسي التبابعة ولما مات بعد حجة الوداع قسم النبي اليمن على عمال من قبله وجعل صنعاء لابنه شهر بن باذان وقام الاسود العنسي فاخرج عمال النبي من اليمن وزحف على صنعاء واستولى على اكثر اليمن وارتد اكثر اهله ثم رجع عمال المسلمين الى اعمالهم وقاتل ابو بكر الصديق المرتدين من اهل اليمن وولي اليمن عمال بني أمية ثم عمال بني العباس لاول امرهم ثم تعاقب الولاة على اليمن وكانوا ينزلون صنعاء حتى انتهت الخلافة الى المأمون وظهرت دعاة الطالبيين بالنواحي وظهر باليمن ابراهيم بن موسى الكاظم سنة مائتين ولم يتم امره وكان يعرف بالجزار لسفكه الدم وبعث المأمون عساكره الى اليمن فدوخوا جهاته وحملوا كثيراً من وجوه الناس فاستقام امر اليمن وولى محمد زياد على اليمن ضماناً له حياطته من العلويين فقدمها سنة ثلاث ومائتين وفتح تهامة اليمن وهي البلاد التي على ساحل البحر الغربي واختط بها مدينة زبيد ونزلها واتخذها كرسياً لتلك المملكة وولى على الجبال مولاه جعفراً وفتح تهامة بعد حروب واشترط على عرب تهامة ان لا يركبوا الخيل واستولى على اليمن اجمع ودخلت في طاعته اعمال حضرموت والشحر وديار كندة وصار في مرتبة التبابعة

وكان في صنعاء قاعدة اليمن بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة استبدوا بها مقيمين بالدعوة العباسية ولهم مع صنعاء سحان ونجران وجرش ويطيع عاملها ابا الجيش اسحق

ابن ابراهيم قتل المتوكل وتغلب المستعين واستبداد الموالي على الخلفاء مع ارتفاع شأن ركن بقطعة شأن سلاطين العجم المستبدين وفي ايامه خرج باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن ابراهيم بن طباطبا داعية الدعوة الزيدية بجبال اليمن وكان جده القاسم قد فر الى السند بعد خروج اخيه محمد مع ابي السرايا فلحق القاسم بالسند وطلب بها الحسين ثم ابنه يحيى باليمن سنة ثمان وثمانين ومائتين ونزل صعدة ودعا دعوة الزيدية وزحف الى صنعاء فملكها من يد اسعد بن يعفر ثم استرجعها منه بنو يعفر ورجع الى صعدة وكان شيعته يسمونه الامام.

وفي ايام ابي الجيش بن زياد ايضا ظهرت دعوة العبيديين (الفاطميين) باليمن دعا بها محمد بن الفضل بعدن لاعة وجبال اليمن الى حدود المذكورة سنة اربع وثلاثمائة وبقي له ما بين الشرجة الى عدن عشرون مرحلة ومن غلافقة الى صنعاء خمس مراحل وهلك ابو الجيش سنة احدى وسبعين وثلاثمائة عن ابن له صغير وتقلد ملكه. قال ابن سعيد رأيت مبلغ جبايته وهو الف الف مكررة مرتين وثلاثمائة وستة وستون الفا من الدنانير العثرية مع ضرائبه على مراكب السند وعلى العنبر الواصل باب المندب وعدن ابين وفي مغاص اللؤلؤ وفي جزيرة دهلك ومن عبيدها وصائف وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر يهادونه ويخطبون مواصلته. وانقرضت دولتهم سنة سبع واربعمائة.

ثم ملك نجاح وقيس من موالي مرجان مولى الحسين بن سلامة وتغلب نجاح بعد ان قتل القائد في خمسة آلاف من عسكره وضرب السكة باسمه وكتب ديوان الخلافة ببغداد فقلده اليمن ولم يزل مالكا تهامة وقاهرا بيد القرى لاهل الجبال والارتفاع الجبال كلها من موالاة الحسين بن سلامة ولم تزل الملوك في مواليه الى ان قتله الصليحي القائم بدعوة العبيديين سنة اثنين وخمسين واربعمائة فقام بالامر بعده بنوه مولاه كهلان.

اما الصليحي فكان مبدأ امره مثل السيد احمد بن ادريس الذي كان قبلا سبقه عند سبعة الستة اللواحية يعرف بالعلم الاجل فالتف الناس حوله واظهر الدعوة الشيعية بالشيوع اولا في حصن مسار جبل حراز وحصن ذلك الحصن ثم ملك اليمن كله ودخل صنعاء واختط بها القصور واسكن عنده ملوك اليمن الذين غلبهم وهو في طرف مطلقا عشرة تهامة ولم يزل الامر كذلك حتى استولى مواليه الزريك على بني الناصر في

شيخ وحصونه ثم باع حصن ذي جبلة من الداعي الزريعي صاحب عدن بمائة الف دينار ولم يزل يبيع معاقله حصناً حصناً حتى لم يبق له غير معقل تعز اخذه منه علي بن مهدي وفي ملوك زبيد يخطبون للعباسيين والصليحيون يخطبون للعبيديين الى اواخر المئة الخامسة والسادسة تغلب عليها ملوك حتى انقرض امر آل نجاح سنة ٥٥٤ وخلفهم غيرهم وبقي امر اليمن في تنقل وانتقال لرجل وتهامة لآخر وعدن لغيرهم حتى جاء عبد النبي ابن مهدي الخارجي من زبيد واستولى على اليمن اجمع وفيه يومئذ خمس وعشرون دولة فاستولى على جميعها ولم يبق له سوى عدن ففرض عليها الجزية ولما دخل شمس الدولة توران شاه بن ايوب اخو صلاح الدين سنة ٥٦٩ واستولى على الدولة التي كانت باليمن ونزل زبيد واتخذها كرسياً لملكه ثم استوخمها وسار في الجبال ومعه الاطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء يتخذه لسكناه فوقع اختيارهم على مكان تعز فاختط به المدينة كما اختط الصليحي سنة ٤٥٨ حصن ذي جبلة ونزلها وبقيت كرسياً لملكه وبنيه ومواليهم بني رسول

وذكر ابن سعيد ان اليمن تشتمل على سبعة كراسي للملك تهامة والجبال وفي تهامة مملكتان مملكة زبيد ومملكة عدن ومعنى تهامة ما انخفض من بلاد اليمن مع ساحل البحر من السرين من جهة الحجاز الى آخر اعمال عدن دورة البحر الهندي والجبال اخصب من التهائم واكثر اهلها الصحابية وفيها من عرب وائل ودامت دولة بني رسول باليمن في رواية ابن اياس نحواً من مائتين وثلاثين سنة وكان سبب تسمية جدهم رسولاً ان الخلفاء كانت تبعثه رسولاً الى البلاد الشامية وغيرها من البلاد فسمي رسولاً وما زال يرقى حتى ملك بلاد اليمن .

ذكر المقدسي ان المذاهب المستعملة اليوم في الاسلام التي لها خواص وفقهاء ودعاة وهي ثمانية وعشرون مذهباً اربعة في الفقه واربعة في الكلام واربعة في الحكم فيها واربعة مندرسة واربعة في الحديث واربعة تغلب عليها اربعة واربعة رستاقية فاما الفقهيات فالحنفية والمالكية والشافعية والداودية واما الكلاميات فالمعتزلة والنجارية والكلابية والسالمية واما الذين لهم فقه وكلام فالشيعة والخوارج والكرامية والباطنية واما اصحاب الحديث فالحنبلية والراهوية والاوزاعية والمنذرية واما المندرسة فالعطائية والثورية والاباضية والطاقية واما التي في الرساتيق فالجعفرية والخرمدينية والابيضية والسرخسية واما التي تغلب عليها اربعة من شكلها فالاشعرية على الكلابية والباطنية

في المرجئة والمعتزلة في القدرية والشيعة في الزيدية والجهمية في الكلابية.

فأما جمل المذاهب المستعملة اليوم (في عهد المؤلف) ثم تشعب منه فرق لا تحصى ولما ذكرنا الألقاب وأسماء تنكر ولا نزيد على ما ذكرنا يعرف ذلك العلماء، وهي أربعة ممدوحة وأربعة مذكورة وأربعة مختلف فيها وأربعة تلقب بها أهل الحديث وأربعة مذهب واحد وأربعة يجمعهن العامة [illegible] الأربعة الروافض والمجبرة والمرجئة والشكاك وأما الممدوحة فأهل السنة والجماعة وأهل العدل والتوحيد والمؤمنون وأصحاب الهدى وأما المذكورة فالكلابية يذكرون الجبر والحنبلية يذكرون النصب ومنكرو الصفات يذكرون التشبيه ومثبتوها يذكرون التعطيل وأما المختلف فيها فعند الكرامية الجبر حمل الاستطاعة مع الفعل وعند المعتزلة حمل الشر بقدر الله تعالى وأن أفعال العباد مخلوقة لله والمرجئة عند أهل الحديث من أخر العمل عن الإيمان وعند الكرامية من أبى فرض الإيمان، وعند المعتزلة من وقف في الإيمان وعند أصحاب الكلام من وقف في أصحاب الكبائر ولم يجعل منزلة بين منزلتين والشكاك عند أصحاب الكلام من وقف في القرآن وعند الكرامية من استثنى في الإيمان والروافض عند الشيعة من أخر خلافة علي وعند غيرهم من أبى خلافة العمرين والأربعة مذهب واحد الزعفرانية والواقفية والشكاك والرستاقية والأربعة تلقب بها أهل الحديث الحشوية والشكاك والنواصب والمجبرة والأربع التي يجمعهن كل نحو وطرفا الحديث من الشفعوية والثورية من الحنفية والظاهرية من الجهمية والقدرية من المعتزلة.

قال وإن أصل مذاهب المسلمين كلها منشعبة من أربع الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة، وأصل افتراقهم قتل عثمان ثم تشعبوا ولا يزالون مفترقين وفي السواد الأعظم الآن أربعة مذاهب أصحاب أبي حنيفة بالمشرق وأصحاب مالك بالمغرب وأصحاب الشافعي بالشاش وخزائن نيسابور وأصحاب الحديث بالشام وأقور والرحاب وبقية الأقاليم ممتزجون.

وقال أيضاً إن اليمن قليل الفقهاء والمذكرين والقراء كما هو قليل الخيل والمياه الغزيرة والصيحات واليهود بها أكثر من النصارى ولا ذمة غيرهم وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وهجر وصعدة شيعة وشيعة عمان وصعدة وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة الأعمال والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم وبالمعافر مذهب ابن المنذر وفي نواحي نجد اليمن

مذهب سفيان والاذان بتهامة ومكة يرجع واذا تدبرت العمل على مذهب مالك ويكبر بزبيد في العيدين على قول ابن مسعود احدثه القاضي ابو عبد الله الصعواني وقت كوني ثم والعمل بهجر على مذهب القرامطة وبعمان داودية لهم مجلس .

ويؤخذ مما قاله الهمداني ان اهل عدن فيما يقال لم يدخل عليهم من الروم احد ولكن أعطوا الرهانة ثم فنوا وسكنها مهرة وقوم من الشراة وظهرت فيها دعوة الاسلام ثم كثر بها الشراة فعدوا على من بها من المسلمين فقتلوهم غير عشرة الامية

الزيدية

والزيدية هم اتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي عليه السلام ساقوا الامامة في اولاد فاطمة عليها السلام ولم يجوزوا ثبوت امامة في غيرهم الا انهم جوزوا ان يكون كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالامامة ان يكون اماما واجب الطاعة سواء كان من اولاد الحسن او من اولاد الحسين وعن هذا قالت طائفة منهم بامامة محمد وابراهيم الامامين ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن اللذين خرجا في ايام المنصور وقتلا على ذلك وجوزوا خروج امامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة واقتبس زيد بن علي مذهب الاعتزال فصار اصحابه كلهم معتزلة وكان من مذهبه جواز امامة المفضول مع قيام الافضل فقال كان علي بن ابي طالب افضل الصحابة الا ان الخلافة فوضت الى ابي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين نائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة فان عهد الحروب التي جرت في ايام النبوة كان قريباً وسيف امير المؤمنين علي عليه السلام عن دماء المشركين من قريش لم يجف بعد والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد وكانت المصلحة ان يكون القيام بهذا الشأن من عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الاسلام والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ترى انه لما اراد في مرضه الذي مات فيه تقليد الامر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه زعق الناس وقالوا لقد وليت علينا فظاً غليظاً فما كانوا يرضون بامير المؤمنين عمر لشدة وصلابة وغلظ له في الدين وفظاظة على الاعداء حتى سكنهم ابو بكر رضي الله عنه وكذلك يجوز ان يكون المفضول اماماً والافضل قائماً فيرجع اليه في الاحكام ويحكم بحكمه في القضايا

ولما قتل زيد بن علي وصلب قام بالامامة بعده يحيى بن زيد ومضى الى خراسان

واجتمعت عليه جماعة كثيرة وخرج محمد وابراهيم بالمدينة والبصرة واجتمع عليهما الناس فقتلا ثم رأوا انه لايجوز خروج واحد من اهل البيت حتى يأذن الله تعالى بزوال ملك بني امية الذين يتطاولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها وهم ينتظرون بعض اهل البيت فقتل زيد بن علي بكناسة الكوفة قتله هشام بن عبد الملك ويحيى بن زيد قتل بجوزجان خراسان قتله اميرها ومحمد الامام قتله بالمدينة عيسى بن ماهان وابراهيم الامام قتل بالبصرة امر بقتلهما المنصور

ولم ينتظم امر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان ناصر الاطروش فطلب مكانه ليقتل فاختفى واعتزل الى بلاد الديلم والجبل لم يتحلوا بدين الاسلام بعد فدعا الناس دعوة الى الاسلام على مذهب زيد بن علي فدانوا بذلك ونشأوا عليه وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين وكان يخرج واحد بعد واحد من الائمة ويلي امرهم وخالفوا بني اعمامهم من الموسوية في مسائل الاصول ومالت اكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بامامة المفضول وطعنت في الصحابة طعن الامامية وهم اصناف ثلاثة جارودية وسليمانية وبترية والصالحية منهم والبترية على مذهب واحد .

وقال صاحب الفرق بين الفرق ان الزيدية ثلاث فرق وهي الجارودية والسليمانية وقد يقال الجريرية ايضاً والبترية وهذه الفرق الثلاث يجمعها القول بامامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب في ايام خروجه وكان ذلك في زمان هشام بن عبد الملك وينسب الجارودية اولا الى أتباع المعروف بابي الجارود وقد زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على امامة علي بالوصف دون الاسم وزعموا أيضاً ان الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي وقالوا أيضاً ان الحسن بن علي كان هو الامام بعد علي ثم أخوه الحسين كان اماماً بعد الحسن وافترقت الجارودية في هذا الترتيب فرقتين فرقة قالت ان علياً نص على امامة ابنه الحسن ثم نص الحسن على امامة أخيه الحسين بعده ثم صارت الامامة بعد الحسن والحسين شورى في ولدي الحسن والحسين فمن خرج منهم شاهراً سيفه داعياً الى دينه وكان عالماً ورعاً فهو الامام وزعمت الفرقة الثانية منهم ان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي نص على امامة الحسن بعد علي وامامة الحسين بعد الحسن ثم افترقت الجارودية بعد هذا في الامام المنتظر فرقاً منهم من لم يعين واحداً بالانتظار وقال كل من شهر سيفه ودعا الى دينه من ولد الحسن والحسين فهو الامام ومنهم من ينتظر محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن ابي طالب ولا يصدق بقتله ولا بموته ويزعم انه هو المهدي

المنتظر الذي يخرج فيملك الارض وقول هؤلاء فيه كقول المحمدية من الامامية في انتظارها محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي ومنهم من ينتظر محمد بن عمر الذي خرج بالكوفة ولا يصدق بقتله ولا بموته فهذا قول الجارودية وتكفيرهم واجب لتكفيرهم اصحاب رسول الله عليه السلام .

ذكر السليمانية او الجريرية منهم هؤلاء اتباع سليمان بن جرير الزيدي الذي قال ان الامامة شورى وانها تنعقد بعقد رجلين من خيار الامامة واجاز امامة المفضول واثبت امامة أبي بكر وعمر وزعم ان الامة تركت الاصلح في البيعة لهما لان عليا كان أولى بالامامة منهما الا ان الخطأ في بيعتهما لم يوجب كفراً ولا فسقاً وكفر سليمان بن جرير عثمان بالاحداث التي نقمها الناقمون منه واهل السنة يكفرون سليمان بن جرير من أجل ان كفر عثمان رضي الله عنه .

وذكر البترية منهم فقال هؤلاء اتباع رجلين احدهما الحسن بن صالح بن حي والآخر كثير النوا الملقب بالابتر وقولهم كقول سليمان بن جرير في هذا الباب غير أنهم توقفوا في عثمان ولم يقدموا على ذمه ولا على مدحه وهؤلاء أحسن حالاً عند اهل السنة من أصحاب سليمان بن جرير وقد أخرج مسلم بن الحجاج حديث الحسن بن صالح ابن حي في مسنده الصحيح ولم يخرج محمد بن اسماعيل البخاري حديثه في الصحيح ولكنه قال في كتاب التاريخ الكبير الحسن بن صالح بن حي الكوفي سمع سماك ابن حرب ومات سنة سبع وستين ومائة وهو من ثور همدان وكنيته ابو عبد الله

قال عبد القاهر : هؤلاء البترية والسليمانية من الزيدية كلهم يكفرون الجارودية من الزيدية لاقرار الجارودية على تكفير ابي بكر وعمر والجارودية يكفرون السليمانية والبترية لتركهما تكفير ابي بكر وعمر وحكى شيخنا ابو الحسن الاشعري في مقالاته عن قوم الزيدية يقال لهم اليعقوبية اتباع رجل اسمه يعقوب انهم كانوا يتولون ابابكر وعمر ولكنهم لايبرؤون ممن تبرأ منهم

قال عبد القاهر اجتمعت الفرق الثلاث الذين ذكرناهم من الزيدية على القول بان اصحاب الكبائر من الامة يكونون مخلدين في النار فهم من هذا الوجه كالخوارج الذين أيأسوا أسراء المذنبين من رحمة الله تعالى ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

انما قيل لهذه الفرق الثلاث واتباعها زيدية لقولهم بامامة زيد بن علي بن الحسن

ابن علي بن ابي طالب في وقته وامامة ابنه يحيى بن زيد بعد زيد . وكان زيد بن علي قد بايعه في امامته خمسة عشر الف رجل من اهل الكوفة وخرج بهم الى والي العراق وهو يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام بن عبد الملك على العراقين فلما استحر القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفي قالوا له انا ننصرك على أعدائك بعد ان تخبرنا برأيك في ابي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن ابي طالب فقال زيد اني لا اقول فيهما الا خيرًا وما سمعت ابي يقول فيهما الا خيرًا وانما خرجت على بني امية الذين قتلوا جدي الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم رفضتموني ومن يومئذ سموا رافضة وثبت معه نصر بن خزيمة العبسي ومعاوية بن اسحاق بن زيد بن حارثة في مقدار مائتي رجل وقاتلوا جند يوسف بن عمر الثقفي حتى قتلوا عن آخرهم وقتل زيد ثم نبش قبره وصلب ثم أحرق بعد ذلك وهرب ابنه يحيى ابن زيد الى خراسان وخرج بناحية الجوزجان على نصر بن سيار والي خراسان فبعث نصر ابن سيار اليه مسلم بن احوز المازني في ثلاثة آلاف رجل فقتلوا يحيى بن زيد ومشهده بجوزجان معروف .

هذا منشأ مذهب الزيدية باليمن وغيرها قال ابن فضل الله : امام الزيدية باليمن وهو من بقايا الحسنيين القائمين بآمل الشط من بلاد طبرستان وقد كان منهم محارب الدولة العباسية حتى كاد يأخذ برداءها ويجتث بناءها . ومقر هذه البقية الآن بصنعاء وبلاد حضرموت وما والاها من بلاد اليمن وأمراء مكة تسر طاعته ولا تفارق جماعته والامامة الآن فيهم في بني المطهر واسم الامام القائم في وقتنا حمزة ويكون بينه وبين الملك الرسولي باليمن مهادنات ومصالحات تارة وتارة وهذا الامام وكل من كان قبله على طريقة متقاربة وهي امارة عربية لا تكبر في صدورها ولا تفخم في ايرادها وهو على مسكة من التقوى وترد بشعار الزهد يجلس في ندي قومه كأحد منهم ويتحدث فيهم ويحكم بينهم سواء عنده المشروف والشريف والقوي والضعيف وربما اشترى سلعته بيده ومشى في أسواق بلده لا يحتفل بالحجاب ولا يكل الامور الى الوزراء والحجاب يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ولا تكثر غير متسع هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل وفضل كامل اه .

ثم حارب القوم الدولة العباسية كما قال العمري حتى كادوا يأخذون رداءها وكذلك فعلوا من بعد الى عهدنا هذا وذلك ناشئ ولا جرم عن جودة هواء الجبال لان

الشدة تغرس في العادة في نفوس الجبليين واما سكان الجبال من اليمانيين الا اشبه بالامر بدءبن ولي حدود الهند والافغانستان واتقد اوى الزيدية الى الجبال كما اوى معظم اصحاب الدعوات اليها فكذا فعل الاسماعيلية والنصيرية فاووا الى جبل اللكام والدروز الى جبل الشوف والجبل الاعلى وجبال صعد وجبال حوران والشيعة المتاولة الى جبل عامل وجبال بعلبك ولبنان من ارض الشام

قال بعضهم صعدة مملكتها نحو مملكة صنعاء وهي في شرقيها وفي هذه المملكة ثلاث قواعد صعدة وجبل قطابة وحصن تلا وحصون اخرى وتعرف كلها ببني الرس واما حصن تلا فبه كان ظهور المؤيد الذي اخذ امامة الزيدية لبني الرضا بعد ان استولى عليها بنو سليمان فاوى الى جبل قطابة ثم بايعوا لاحمد الموطي سنة خمس واربعين وستمائة

وقال ابن فضل الله ايضاً في الزيدية : واما الزيدية فهم اقرب القوم الى القصد الأمم وقولهم ان ابابكر وعمر رضي الله عنهما ائمة عدل وان ولايتهما كانت لما اقتضته المصلحة مع ان علياً رضي الله عنه افضل منهما ويرون جواز ولاية المفضول على الفاضل في بعض الأحيان لما تقتضيه المصلحة او خوف الفتنة ولهذه الطائفة امام باق الى الآن باليمن وصنعاء داره وامراء مكة المعظمة منهم وحدثني الشريف مبارك بن الامير عطيفة بن ابي نمي انهم لايدينون الا بطاعة ذلك الامام ولا يرون الا انهم نوابه وانما يتوقون صاحب مصر لخوفهم منه والاقطاع (١) وصاحب اليمن لمداراته لواصل المكارم ورسومه وكانت لهؤلاء دولة قديمة بطبرستان زالت الا هذه البقية .

وقال ابن خلدون واما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وانها باختيار اهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن ثم اخيه الحسين ثم ابنه علي زين العابدين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعياً الى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى الى خرسان وقتل بالجوزجان بعد ان اوصى الى محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد الى اخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه اليهم المنصور عساكره فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق اخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم الى ان الامام بعد محمد بن عبدالله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو اخو زيد بن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق

الى المنصور فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد يحيى بن زيد هو اخوه عيسى الذي خرج مع ابراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة في عقبه واليه انتسب دعي الزنج وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد محمد ابن عبد الله اخوه ادريس الذي فر الى المغرب ومات هنالك وقام بامره ابنه ادريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب الى ان انقرضوا وبقي امر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسن السبط واخوه محمد ابن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الاطروش منهم واسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر اخو زيد بن علي فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوصل الديلم من نسبهم الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد

وذكر ابن حاتم من جملة فرق الشيعة الزيدية القائلين بامامة زيد بن علي بن الحسين والامامة من اجتمع فيه العلم والزهد والشجاعة ظاهراً وهو من ولد فاطمة رضي الله عنها ويخرج لطلب الامامة ومنهم من زاد صباحة الوجه وان لا يكون مؤوفاً ويجوزون قيام امامين في مكانين ومن رفض زيداً منهم اطلق عليهم اسم الرافضة اولاً وهؤلاء الثلاث طوائف من الشيعة اعني الامامية والاسماعيلية والزيدية هم رؤوس الرفض

قال ابن حزم اتفقت الامة كلها على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من احد منهم لقول الله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثم اختلفوا في كيفيته فذهب بعض اهل السنة من القدماء من الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم الى ان الفرض من ذلك انما هو بالقلب فقط او باللسان ان قدر على ذلك ولا يكون باليد ولا بسل السيوف ووضع السلاح اصلاً وبهذا قالت الروافض كلهم ولو قتلوا كلهم الا انها لم تر ذلك ما لم يخرج الناطق فاذا خرج وجب سل السيوف حينئذ معه والا فلا واقتدى اهل السنة بعثمان ومن معه من الصحابة وبمن رأى القعود منهم الا ان جميع القائلين بهذه المقالة من اهل السنة انما رأوا ذلك ما لم يكن عدلاً فان كان عدلاً وقام عليه فاسق وجب عندهم بلا خلاف سل السيوف مع الامام العادل. وذهبت طوائف من اهل السنة وجميع الخوارج والزيدية الى ان سل السيوف في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب اذا لم يكن دفع المنكر الا بذلك قالوا فاذا كان اهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفر ففرض عليهم ذلك

وبعد فان شيعة علي رضي الله تعالى عنه زيدي ورافضي وبقيتهم بدد لا نظام لهم قالت علماء الزيدية وجدنا الفضل في الفعل دون غيره ووجدنا الفعل كله في اربعة اقسام اولها القدم في الاسلام حين لا رغبة ولا رهبة الا من الله تعالى واليه ثم الزهد في الدنيا فان ازهد الناس في الناس ارغبهم في الآخرة وآمنهم على نفائس الاموال وعقائل النساء واراقة الدماء ثم الفقه الذي به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم ثم المشي بالسيف كفاحاً في الذب عن الاسلام وتأسيس الدين وقتل عدوه واحياء وليه فليس فوق بذل المهجة واستغراق القوة غاية يطلبها طالب او يرتجيها راغب ولم نجد قولاً خامساً فنذكره فلما رأينا هذه الخصال مجتمعة في رجل دون الناس كلهم وجب علينا تفضيله عليهم وتقديمه دونهم · وذلك انا سألنا العلماء والفقهاء واصحاب الاخبار وحملة الآثار عن اول الناس اسلاماً فقال فريق منهم علي · وقال قوم زيد بن حارثة وقال قوم خباب ولم نجد قول كل واحد منهم من هذه الفرق قاطعاً لعذر صاحبه ولا ناقلاً له عن مذهبه وان كانت الرواية في تقديم علي اشهر واللفظ به اكثر وكذلك اذا سألناهم عن الذابين عن الاسلام والماشين الى الاقران بسيوفهم وجدناهم مختلفين فمن قائل يقول علي رضي الله تعالى عنه ومن قائل يقول ابن عفراء ومن قائل يقول محمد بن مسلمة ومن قائل يقول طلحة ومن قائل يقول البراء بن مالك على ان لعلي من قتل الاقران والفرسان ما ليس لهم فلا اقل من ان يكون علي في طبقتهم وان سألناهم عن الفقهاء والعلماء رأيناهم يعدون علياً ممن كان افقههم وعمر وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب على ان علياً كان افقههم لانه كان يُسأل ولا يَسأل ويفتي ولا يستفتي ويحتاج اليه ولا يحتاج اليهم ولكن لا اقل من ان نجعله في طبقتهم وكاحدهم وان سألناهم عن اهل الزهادة واصحاب التقشف والمعروفين برفض الدنيا وخلعها والزهد فيها قالوا علي وابو الدرداء ومعاذ بن جبل وابو ذر وعمار وبلال وعثمان بن مظعون على ان علياً ازهدهم لانه شاركهم في خشونة الملبس وخشونة المأكل والرضا باليسير والتبلغ بالحقير وظلف النفس ومخالفة الشهوات وفارقهم بان ملك بيوت الاموال ورقاب العرب والعجم فكان ينضح بيت المال في كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ورقع سراويله وقطع ما فضل من ردائه عن اطراف اصابعه بالشفرة في امور كثيرة مع ان زهده افضل من زهدهم لانه اعلمهم وعبادة العالم ليست كعبادة غيره كما ان زلته ليست كزلة غيره فلا اقل من ان نعده في طبقتهم ولا نجدهم ذكروا لابي الدرداء وابي ذر وبلال مثل الذي

ذكروا له في باب الغناء والذب ، وبذل النفس ونحوهم ذكروا الزبير وابن عفراء وابي دجانة والبراء بن مالك مثل الذي ذكروا له من التقدم في الاسلام والزهد والفقه وهم يقدمون ذكروا لأبي بكر وزيد وخباب مثل الذي ذكروا له من بذل النفس والغناء والذب بالسيف ولا ذكروهم في طبقة الفقهاء والزهاد فلما رأينا هذه الامور مجتمعة فيه متفرقة في غيره من اصحاب هذه المراتب وهذه الطبقات علمنا ان افضلهم وان كان كل رجل منهم قد اخذ من كل خير نصيبه فانه لم يبلغ ذلك مبلغ من قد اجتمع له جميع الخير وصنوفه . قال الجاحظ بعد كلام في هذا النحو وانما اقتصدت الى هذا المذهب دون مذهب سائر الزيدية في ولاية الامام وتحكيمهم لانه احسن شئ رأيته لهم وانما احكي لك من كل نحلة قول حذاقهم وذوي البابهم لان فيه دلالة على غيره وغنى عما سواه

الخاتمة

ترى القارئ من هذا البحث كيف كانت اليمن وكيف كان سكانها وما هي مذاهبهم وما آل به الناس الى كل نوع من الفتن سوى المظالم التي دكت العمران وابادت السكان وعقدا وافنتهم منذ القرون الوسطى الى اليوم وقد اصابهم في عهد الدولة العلية ما اصاب معظم الولايات البعيدة عن العاصمة ولانه لم يكن يقدم الى الخدمة هناك من جيش الدولة وعمالها الا من جعل الاستغناء بأي طريقة كانت ولي همه وهمه نفسه

قال الشيخ اليماني : ولقد حكي عن بعض امراء الروم يسمى مثلا في صنعاء حين ولايتهم اليمن وغيره الشهرة واكثر قدامى اهل اليمن ضرب المثل بالطماع وصار عنا بالظلم والفتك كأنه مولع بسفك الدم والتفنن فيه بالذبح والصلب والخنق والكرباج فيذاهم في حاجة يتأوه ويبتهل الى الله في طلب المخرج من قتل مسلم قتله في الروم اذ قيل له هؤلاء الجماعة الذين ارسلتهم فاشار ان اقتلوهم من دون اكتراث ولا تطرو ولا استثبات في شأنهم فقال له بعض الحاضرين في ذلك فقال انا اقوم من قتل مسلم محترم وهؤلاء زيدية يحل دماؤهم الى ان قال وكنت اظن ان هذا شئ نادر في حق الشورى وجماعة قبلهن واذا هو مطلق عليه في من هو في دولة الاروام كأن هذا شيء يقع العرقة وكأنما نسخت الشريعة اه . كذا قال وهو لا علم له ولا يخفى من حقيقة تاريخيه فقد أثر عن الولاة المتأخرين اعمال كهذه يتسافلها اليمنيون ويعدونها من المحارم ولذلك فما رأينا حاجة الى حكومة فهي ان تعرف حكومتنا الحاضرة كيف تكون كل الكشف وتكفي الأمة تلك الشرور المتمادية قرونا في مملكة الشامخة وحمير

تاريخ الحضارة(١)

في القرون الوسطى والقرون الحديثة

اصول الحضارة

الآثار قبل التاريخ — نجد في الارض احياناً دفائن من سلاح وادوات وعظام بشرية وبقايا من كل نوع تركها البشر ولا نعلم عنها شيئاً ويستخرج منها الوف من الانواع في جميع ولايات فرنسا وسويسرا وانكلترا بل في اوربا كلها بل يستخرج مثلها من آسيا وافريقية ولاشك ان لها امثالاً في العالم كله . وتسمى هذه البقايا آثار قبل التاريخ لانها اقدم من التاريخ ومنذ نحو اربعين سنة اخذ العلماء يجمعونها ويدرسونها . ولمعظم المتاحف اليوم قاعة او على الاقل بعض بيوت من الزجاج مملوءة من هذه البقايا . وعلى مقربة من باريز في (سان جرمان ان لاي) متحف من قبل عهد التاريخ . وقد جمعت الدانيمرك زهاء ثلاثين الف قطعة من الآثار . وفي كل يوم يعثر على تحف اثناء الحفر وعند بناء بيت وحفر حفيرة لسكة حديدية .

وهذه التحف لا ترى على سطح الارض بل هي مدفونة في الاعماق وفي اماكن لم تنبش تربتها وهي مغشاة بطبقة من الحصباء والطين الذي تراكم شيئاً فشيئاً فوقها وحفظتها بمأمن من الهواء وهو ما يؤكد كل التأكيد بان تلك الدفائن هناك منذ زمن بعيد .

علم ما قبل التاريخ — فحص العلماء هذه الآثار فتساءلوا عمن خلفها وحاولوا ان يعرفوا من عظامها وادواتها كيف نشأت وكيف كانت تعيش فاعتبروا ان هذه الادوات تشبه ما يستعمله بعض المتوحشين الى اليوم . ومن درس هذه التحف انشأ علماً جديداً(٢) سموه علم الآثار قبل زمن التاريخ

العصور الاربعة — حدثت بقايا الآثار قبل زمن التاريخ من اجناس من البشر متنوعة كثيراً فبقيت في الارض ادواراً متطاولة جداً منذ زمن كان يعيش فيه في بلادنا الماموت وهو نوع من الفيل العظيم له جلد كثير الوبر وانياب محددة . وتقسم هذه السلسلة من القرون الى اربعة ازمان تسمى عصوراً

---

(١) معرب من كتاب شارل سينيوبوس من مؤرخي فرنسا (٢) وضع هذا العلم علماء من الفرنسيس والسويسريين والدانيمركيين .

فالاول عصر الحجر النحيت والثاني عصر الحجر الصقيل والثالث عصر النحاس والرابع عصر الحديد . سميت هكذا بسبب الادوات التي كانوا يصنعونها من الحجر والنحاس او الحديد . على ان هذه الازمان تختلف طولاً وقصراً وربما دام عصر الحجر النحيت مدة ضعف عصر الحديد

عصر الحجر

بقايا الحصباء — اقدم الاطلال التي عثر عليها كانت مدفونة في الحصباء . وقد عثر احد علماء فرنسا المسيو بوشه دي برت (منذ سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٥٣) في وادي لاسوم بادوات قاطعة من الصوان . كانت مطمورة في عمق ستة امتار تحت الحصباء في ثلاث طبقات من ارض غرين وحصى وكلس صلصالية الخ كما يرى . كما عثروا في نفس تلك الاماكن على عظام بقر وأيائل بائدة . ولكن الناس هزأوا زمناً بهذه الاكتشافات وكانوا يقولون ان هذا الصوان قد قطعت صدفة بلا تعمل حتى اذا كانت سنة ١٨٦٠ جاء عدة من العلماء وقصدوا الى وادي لاسوم واعترفوا بان هذا الصوان قد نحتته يد البشر لا مراء . ومنذ ذلك العهد عثروا على زهاء خمسة آلاف قطعة تشبه تلك في طبقات من هذا الجنس نفسه وذلك في وادي السين وفي انكلترا وكان بجانب بعض تلك الآثار بقايا عظام بشرية . ولا يختلف اثنان اليوم في انه كان بشر في العالم في الزمن الذي تألفت فيه تربة طبقات الحصباء . فاذا كانت الطبقات التي تغشي هذه الاطلال قد تألفت بالبطء الذي تتألف به لعهدنا هذا فان البشر الذي وجدت عظامهم وادواتهم قد عاشوا قبل زهاء مئتي الف سنة .

رجال الكهوف — واطلال عثر الباحثون على اطلال في الكهوف محفورة في الصخر لكون اعلاها فوق نهر واشهرها مغارات شواطئ نهر الفيزير (احد انهار فرنسا) ويكثر امثالها في كثير من الاماكن اتخذت قديماً مساكن للناس واحياناً قبوراً لهم . فنجد فيها هياكل عظامهم واسلحتهم وادواتهم وهي عبارة عن فؤوس وسكاكين وازاميل واسنة رماح من الصوان وسهام وشفار وكلاليب وابر من العظام مثل ما كان يستعملها بعض المتوحشين وقد عثرت على التربة عظام الحيوانات فكان اولئك الناس الاقدمون كسائر المتوحشين يقتاتون بها في زوايا بعد ان يأكلوا الحيوان وقد يشقون عظامه ليستخرجوا منها النخاع على ما يفعل اليوم المتوحشون . وانت ترى بين تلك الوحوش الارنب والأيل والبقر والحصان وحوت سليمان بل نجد بينها ايضاً الكركدن ودب

الكهوف والماموت والوعل وبقر السهل وجميع ضروب الوحوش المنقرض نسلها من فرنسا منذ زمن طويل . ولقد عثر ايضاً على بعض الصور المنقوشة على عظام الوعل او على اسنان الماموت تمثل احداها قتال وعول والثانية حيوان الماموت اي فيلاً هائلاً ذا جلد له وبر كالصوف وانياب معقفة

لاجرم ان هؤلاء الناس كانوا معاصرين لذلك الفيل والوعل فكانوا كجنس الاسكيمو (سكان القطب في اميركا) في عهدنا هذا قوم دأبهم الصيد والقنص يحسنون صنع الصوان وايقاد النيران

المساكن — انخفضت المياه في بحيرة زوريخ (سويسرا) سنة ١٨٥٤ عقيب ما حدث من الجفاف في صيف تلك السنة فاكتشف سكان الشواطئ اوتاداً غرزت في الماء وهي بالية جداً وماعوناً خشناً غير محكم وكانت هذه بقايا قرية قديمة بنيت على الماء . ثم عثر على زهاء مائتي قرية تشبهها في بحيرات سويسرا ويدعونها القرى او المدن المبنية على اوتاد في شواطئ البحيرات . اما الاوتاد التي قامت عليها تلك المساكن فقد جاءت من جذوع الاشجار غرزت من اطرافها في البحيرة الى عمق عدة امتار واقتضى لانشاء كل قرية من ثلاثين الى اربعين الف جذع تحمل سطحاً من الخشب اقيمت عليه بيوت من خشب مغشى بالطين . ويستدل مما عثر عليه من مئات من الامتعة في وسط تلك الاوتاد على المعيشة التي كان السكان يحيونها فقد كانوا يأكلون من الحيوانات التي يصيدونها الايل والوعل والخنزير البري على حين كانوا يعرفون من قبل الحيوانات الاهلية كالبقر والمعز والخيل والكلب ويحسنون زرع الارض وحصاد الغلة وطحن الحب لانه وجد في الاطلال تراكم حب الحنطة بل خبز (وبعبارة أخرى معجنات بدون خمير) وكانوا ينسجون الاقمشة الغليظة من القنب ويجعلون الثياب وقد عثر على ابر من عظام وكانوا يصقلون الاحجار على صورة ليس فيها شيء من المهارة وترى آنيتهم لا اثر للدقة فيها بل هي معمولة باليد ومزدانة ببعض خطوط فقط وكانوا يصنعون السكاكين والسهام من حجر الصوان مثل سكان الغيران ولكنهم يصقلون فؤوسهم من حجر صلب للغاية تحلوا صقله . ولذلك دعي عصرهم بعصر الحجر المصقول وهؤلاء السكان احدث عهداً من سكان الغيران لانهم لم يعرفوا فيل الماموت ولا الكركدن وان كانوا عرفوا الوعل والايل في ارض فرنسا .

الصنائع او الابنية — تسمى الابنية المصنوعة من ضخم الشقيف من الاحجار غير

المصنوعة الابنية الميكاليتية اي الحجارة الضخمة ويكون الحجر فيها تارة في حالة واخرى ممشى بالطين . والمصانع التي يرى فيها الحجر مكشوفاً هي من انواع شتى « الدولمن » وهو منضدة من الحجر مؤلفة من حجر مستطيل موضوع على عدة احجار مغروزة في الارض و« الكروملك » وهي دائرة من الحجر مؤلفة من صخور كبيرة مصفوفة على صورة اطار ومنها « المنهير »[1] وهي حجر طويل مؤلف من قطعة واحدة على طرفها وكثيراً ما تكون عدة من المناهير مصفوفة صفاً واحداً . ولا تزال في الكرنك من اقليم بريتانيا اربعة آلاف من هذه البناء الدالة على احد عشر صفاً . ويذهبون الى انه كان قديماً عشرة آلاف واحد . [illegible] واحد في ذلك المكان . والك الشاهد الابنية الميكاليتية في فرنسا بالمئات في ولايات الغرب ولا سيما في اقليم بريتانيا وتجد في انكلترا [illegible] الا [illegible] في جزائر اوركاد .

وتسمى المصانع المدفونة التوموليس وهي شبه اكمة من بعد واذا فحصت يجد المرء في داخلها غرفة من الحجر وكثيراً ما تكون مبلطة بألواح من الصخر . وترى منها في بلاد الدانيمرك والمانيا الشرقية مصانع كثيرة ويسمي اهالي تلك البلاد تلك المصانع المدفونة قبور الجبارين .

والمصانع الميكاليتية كثيرة خارج اوربا وفي الهند وعلى شاطئ افريقية . ولا نعلم اي الشعوب استطاعت استخراج مثل هذا الثقيل ونقله وقد جاء زمن طويل كانوا يظنون فيه ان قدماء الغاليين والسلتيين هم الذين عنوا باستخراجها ونقلها ومن هنا جاء اسم المصانع السلتية ولكن ذلك مردود بما ثبت وجود مثل هذه المصانع في افريقية والهند .

واذا فحصت بعض هذه المصانع المدفونة غير الممسوسة تجد فيها كل حين هيكل عظام وكثيراً ما يكون عدة هياكل وهي اما جالسة او مضطجعة فهذه المصانع عبارة عن قبور فتجد بالقرب من الميت اسلحة وآنية والوسما [illegible] . [illegible] هذه القبور ترى الاسلحة عبارة عن فؤوس من الحجر المصقول والنقوش هي اصداف ولآلئ وعقود من عظام ومن عاج والآنية بسيطة الصناعة بدون عروة ولا عنق بل هي مزدانة فقط بخطوط او بنقط

---

[1] سميت جميع هذه المصانع باسماء سلتية لان العلماء درسوها اولاً في بلاد السلت .

وترى فيها عظام حيوانات ملقاة على ارض مكلسة وهي بقايا طعام قدم في جنازة الميت قدمه احبابه الى قبره · وليس بين هذه العظام اثر لعظم الوعل وهذا ما يستدل منه على ان هذه المصانع بنيت حينما اندثر جنس الوعل من اقطار اسوج بعد زمن القرى المبنية في البحيرات

قرن المعادن

القلز (النحاس الذي لا يدخل فيه الحديد) استعمل البشر المعادن منذ عرفوا اداتها يصنعونها بأسلحتهم مفضلين اياها على الحجر · واول معدن شاع الاستعمال هو النحاس لسهولة استخراجه لان منه الصافي السهل على التطريق اذ يمكن تطريقه باردًا ولكن لم يستعمل النحاس الخالص ومنه تصنع اسلحة سريعة العطب قابلة للتفليل · ولذلك مزجوه ١٠٪ من القصدير ليزيد صلابة وهذا المزيج من النحاس والشبه هو الذي يسمونه القلز ·

ادوات البرونز — صنعوا من القلز ادوات العمل (كالمدى والمطارق والمناشير والابر والصنانير) وادوات الزينة (أساور وسلاسل وقلائد واقراط) وصنعوا منها اسلحة بوجه مخصوص مثل الخناجر ونصال الرماح والفؤوس والسيوف) و يوجد من هذه المصنوعات في قارة اوربا عامة في المصانع المدفونة وفي مشاهد الرخام Dolmen الحديثة وفي معادن الحجر المشتعل tourbière ببلاد الدانيمرك وفي مدافن الحجر و كثيرًا ما يكتشف بالقرب من هذه المصنوعات من البرونز ادوات من الزينة من ذهب واحيانًا بقايا ثوب من الصوف · ولا يتأتى ان تكون جميع ادوات البرونز متشابهة بالعرض ومصنوعة من مزيج معين · لاجرم ان تاريخها يرد الى عهد واحد وهو متقدم على وصول الرومان الى غاليا اذ لم يعثر بها قط في جانب الآثار الرومانية والى اليوم لم يعرف من كان يستعملها ·

قرن الحديد — لما كان الحديد اصعب على التطريق واقسى على العمل من البرونز لم يعرف استعماله الا موخرًا · ولما كان اكثر صلابة لم يستعمل غيره للسلاح منذ عرف · وكان الحديد على عهد هوميروس ببلاد اليونان معدنًا ثمينًا يدخرونه لصنع السيوف و يفوق القلز سائر الاستعمالات ولذلك نرى كثيرًا من القبور تحوي اشياء من القلز واسلحة من الحديد كيفما اتفق

وهذه الاسلحة هي فؤوس وسيوف واتراس ودروع و يوجد منها في العادة بالقرب

من هيكل عظام في قبر حجر او خشب لان المحاربين كانوا يدفنون مع اسلحتهم ويطمرونها في ساحة الحروب مكسورة او ضائعة في قعر حوض من الحجر وقد اكتشف في احد هذه الاحواض في شلزويك ١٠٠ سيف و ٥٠٠ رمح و٣٠ فأسًا و٤٦٠ سهمًا و٨٠ مدية و٤٠ مثقبًا وكلها من الحديد ولقي بقربه من ذلك المكان في مجرى ترعة قديمة رأوا مركبًا عظيمًا طوله ٧٠ قدمًا محملًا كله من الخزف والسيوف والنصال والمدى والاشياء المعمولة من الحديد التي يعثر على هذه الصورة كثيرة لا تحصى واقل منها من مصنوعات البرونز لان الصدأ يأكل الحديد بسرعة فتراها الاول وهي اكثر قدمًا ولكنها في الحقيقة اكثر حداثة

عرف سكان شمالي اوربا الحديد قبل دخول الرومان اي في القرن الاول ب. م. وقد اكتشف في مقبرة قديمة بالقرب من مناجم الملح في هلشتاد من بلاد النمسا ٩٨٠ قبرًا تحتوي على ادوات من الحديد والبرونز ولم يعثروا معها بقطعة من النقود الرومانية وتقدم قرن الحديد الى عهد الرومانيين . ولان المصنوعات الحديدية يعثر عليها مع ادوات الزينة الذهبية والفضية والاواني الخزفية الرومانية ونواويس وكتابات ونقود رومانية على مثال صور الاباطرة . والمحاربون الذين نراهم مضطجعين بالقرب من سيوفهم ودروعهم كانوا في الاكثر الى عهد قريب منا وكان كثير منهم على عهد الميروفنجيين وبعضهم ايضًا على عهد شارلمان . فليس القرن الحديدي اذًا من القرون التي تعد قبل زمن التاريخ .

الخلاصة

ماذا يراد من القرون الاربعة — استعمل سكان البلد الواحد الاحجار المحطمة فالاحجار المصقولة فالنحاس فالحديد ولكن البلاد كلها لم تكن تستعمل في القرن الواحد المعدن الواحد فالمصريون استخدموا الحديد في حين كان اليونان يستعملون النحاس وبرابرة الدانيمرك ما زالوا على استعمال الحجر ولم ينته عصر الحجر المصقول في اميركا الا عند ما وصل اليها الاوربيون ولا يزال المتوحشون من اهل اوستراليا الى ايامنا هذه في عصر الحجر النحيت ولا يوجد في منازل عسكرهم سوى ادوات من العظام وقد كانت تشبه ما كان يستعمله سكان الغيران فليس العصور الاربعة الا ادوارًا في حياة الانسانية بل في حياة كل مملكة على حدتها فقط

شكوك — مطرح علم الآثار قبل التاريخ من العلوم الحديثة النشأة وما نراه من

البشر الاولين تعلمناه من بقايا حفظت بالعرض ووجدت كذلك وعلى ذلك وقد تؤدي صدمة جديدة وحفرة او خندق وانهيار ارض وجفاف بحر الى اكتشاف جديد . ومن يعرف ماهو مدفون في باطن الارض حتى الآن ان ماعثرنا عليه من المدفونات حتى اليوم من الاشياء لا يقع تحت الحصر ولكن اقل تقسيمها وبدأنا نعرفه . فكم من زمن دام كل عصر من العصور الاربعة ؟ ومتى بدأ وانتهى في البلدان المختلفة في العالم ؟ ومن اي الشعوب التي صور الغيران والكهوف والقرى وسط البحيرات والمصانع المدفونة في القلائد الحجرية ؟ وعندما تنتقل مملكة من عصر الحجر المصقول الى البرونز يكون الشعب نفسه قد غير ادواته او خلفه شعب آخر ؟ وعند ما يعتقد بعضهم انه حل وجواب على ذلك يحدث اكتشاف جديد يكذب علماء الآثار فقد كان يظن ان القلائد الحجرية جاءت من السلتيين فوجدوا منها في محال لم يستطع السلتيون ان يجاوزوها

مسائل محلولة — ومع هذا فان ثلاث مسائل يظهر انها محلولة (١) الانسان هو قديم على الارض لانه عرف الماموت ودب الكهوف فكان يعيش على الاقل خلال العصر الذي يقال له العصر الرباعي (٢) انتقل الانسان من حالة الهمجية حتى وصل الى المدنية وحسن بالتدريج آلاته وادواته وزينته من الفأس الحقير المعمول من الصوان والعقد المؤلف من اسنان الدببة الى سيوف الحديد وحلي الذهب وذلك لان الادوات الغليظة كثيراً ما هي ايضاً عريقة في القدم (٣) تقدم الانسان تقدماً سريعاً وكان كل عصر اقصر مما سبقه

غاليا

شعوب غاليا المتقدمة — كانت البلاد التي يسكنها (الفرنسويون) تدعى قديماً بلاد غاليا ويريدون بهذا الاسم جميع الصقع الممتد من جبال البيرينه الى الالب والرين فالبحر وهذه البلاد الواسعة لم تكن مملكة واحدة بل كانت تنقسم بين مئة من الشعوب الصغيرة على الاقل ولكل منها حكومته وجيشه يحارب بعضها بعضاً

وهذه الشعوب مؤلفة من ثلاثة عناصر مختلفة

(١) كان الايبريون وهم من نفس عنصر سكان اسبانيا يسكنون في الجنوب في البلاد الواقعة بين جبال البرينه ونهر الغارون بلغة لا تشبه بوجه من الوجوه اللغات التي يتكلم بها في اوربا ولا تزال يتكلم بها الى الآن الباسك في البرينيه

(٢) السلتيون في الوسط اي من نهر الغارون الى نهر المارن من عنصر سكان ايرلاندا اليوم ولغتهم شبيهة باللغة التي يتكلم بها اهل ايرلاندا وفي بلاد الغال وبريطانيا

(٣) في الشمال من نهر المارن الى نهر الرين الشعب البلجيكي الذي كان بعضه من السلتيين والاكثر من الجرمانيين اي من جنس الشعوب التي تسكن المانيا

لم يكن في غاليا من وحدة في الجنس ولا وحدة في اللغة

ديانة الغاليين — كانت ديانة الشعوب الغالية شبيهة بديانة اليونان والرومان فيعبدون عدة ارباب [illegible] الارباب وكانوا يعرفون الهها [illegible] رب الشمس [illegible] يقولون في سلاسل ذهب [illegible] ارواح الموتى [illegible] الارباب [illegible] الاحكام [illegible] الناس [illegible] والدرويديون يجتمعون [illegible] من الاسر الشريفة [illegible] وكان الدرويديون [illegible] الذهب [illegible] الروح [illegible] وكانوا [illegible] السرية [illegible] واحد [illegible] (عد) [illegible] بجعلها بالحفلة [illegible] في اليوم السادس من [illegible]

اخلاق الغاليين وعاداتهم — كانت الشعوب الغالية في القرن الاول من التاريخ المسيحي [illegible] لا [illegible] كما [illegible] اليونان [illegible] او الرومان في [illegible] البلاد [illegible] والاشجار والغابات [illegible] من [illegible] سوى [illegible] البيوت [illegible] ولا مداخن [illegible] ولا [illegible] ولم يكن لهم [illegible] من الجو [illegible] واعلها القوم

ويقضون ايام الحروب وهناك كانت تقام الاسواق وتعقد مجتمعات الحاربين والاشراف .

ولم يكن سكان البلاد متساوين فيما بينهم فكان الفلاحون طبقة دنيئة والحاربون الذين يقاتلون على خيولهم هم طبقة الاشراف وهؤلاء وحدهم هم الحكام وكان لبعض الشعوب زعيم سام اي ملك ولفظ ريكس الغالية التي توجد في آخر عدة من اسماء رؤسائهم مثل امبيوريكس بوايوريكس وفرسنجيتوريكس وغير ذلك هي نفس اللفظ اللاتيني ريكس

وكان الحاربون يتسلحون برمح له سنان من الفلز وسيف ثقيل من الحديد ويلبسون خوذة وترساً من الخشب ولم يكونوا يلبسون الدروع . ويفوق الغاليون اليونان والرومان من جهة واحدة فقط وهو ان ثيابهم كانت اكثر ملاءمة واحسن صوناً للتوقي من البرد . فبدلاً من ان يلبسوا مثلهم ثياباً طويلة تربك صاحبها وتترك ساقيه عريانتين وفخذين تكشفان رجليه كانوا يلبسون نوعاً من السراويل (البري) ومشلحاً وضرباً من ضروب الاردية (السي) اشبه بما يلبسه الجبليون من اهل ايكوسيا واحذية تسمى كاليكا اي الغالية ومنها جاءت لفظة « كالوش » الفرنسوية واقتبس الرومانيون منهم السراويل الغالية

غاليا الرومانية

كيف اصبحت غاليا رومانية — استوطن الرومان بادئ بدء الشطر الجنوبي من غاليا في جوار ايطاليا حيث طاب لهم الهواء واطلق عَلَى البلاد من جبال البيرينيه الى جبال الالب اسم بروفانس اي ولاية (وبقي اسم بروفانس يطلق على القسم الشرقي من شرقي نهر الرون) ولم يمض زمن طويل حتى اشبهت بلاد ايطاليا ولما افتتح قيصر بقية بلاد غاليا خف سكانها الى التخلي عن عاداتهم واقتباس عادات الرومان فغادروا القرى ونزلوا المدن حيث انشأوا معابد ودور تمثيل وحمامات وبيوتاً من رخام مفروشة بالفسيفساء على نحو ما اعتاد اغنياء الرومان

وحذا السكان حذو الاشراف فتركوا بالتدريج حتى لغتهم واخذوا يتكلمون باللاتينية ومن اللاتينية التي تتكلم بها العامة في المملكة الرومانية نشأت اللغات الرومانية كالفرنسوية والايطالية والاسبانية ويكاد لا يبقى في الافرنسية سوى كلمات طفيفة من اللغة الغالية مثل « بك » منقار « كوك » ديك « اليت » قبرة « مارن » تراب كلسي

تزوج بصلصال « دون » كليب « ليو » ورمي

نظام غاليا — لم تندثر الشعوب الصغرى القديمة التي كانت تتألف منها غاليا بل تألفت من كل واحد منها مدينة سميت باسم سكانها مثل سواسون تريف ليموج باريز . وكما أنشئت مدن جديدة تماثل الى ما انشئ من نوعها قبلاً . وانضمت عدة مدن فألفت منها ولاية وكان لكل ولاية حاكم ينوب عن الامبراطور وله سلطة مطلقة بالقوة فهو يقضي بين الناس ويبت المسائل ويبلغ المدن اوامر الامبراطور وكان الوالي في الولايات الواقعة على الحدود حيث يرابط فيالق من الجيش دائماً هو القائد

وما كان لسكان غاليا رغبة في تأليف امة خارجة عن بقية المملكة حتى ان الاهالي يعتبرون انفسهم رومانيين فيطيعون الامبراطور وحكامه عن رضى ولذلك لم يكن الامبراطور في حاجة ان يضم شملهم تحت رايته بالقوة كما يجمع شمل الشعب المغلوب على امره . وكان له جيش ولكن على التخوم فقط للدفاع عن الغاليين من غزوات برابرة الجرمانيين لا لاكراههم على الخضوع . ولم يكن في تلك البلاد الواسعة التي هي اكبر من فرنسا الحديثة من الجنود الا حرس الولاة يبلغ عددهم على الجملة ثلاثة آلاف رجل .

اصول المجالس البلدية في غاليا — ظل صغار الشعوب في غاليا يديرون أمور انفسهم بانفسهم وكان للامبراطور التدخل في مسائلهم الداخلية ولكنه لا يسيء في العادة استعمال حقوقه بل يطلب اليهم فقط ان لا يحارب بعضهم بعضاً وان يؤدوا المطلوب منهم للحكومة في اوقاته وان يحضروا امام محكمة الوالي . وكان في كل ولاية عدة حكومات صغرى مأثورة وتدعى كما كانت قديماً في المملكة الرومانية مدناً او بلديات . فالمدينة على عهد الامبراطورية الرومانية كانت على مثال المدينة الرومانية نفسها فيها مجلس عامتها وعمال ينتخبون كل سنة ويقسمون اقساماً كل قسم مؤلف من عضوين ومجلس الشيوخ يتألف من كبار ارباب الاملاك اي من الاشراف والأسرات القديمة وكان حال مجلس العامة او الامة كما هو الحال في رومية صورياً ومجلس الشيوخ لسبب الاشراف هم الحكام حقيقة اما وسط المدينة فهو مدينة صرفة على الدوام اي رومية مصغرة وفيها معابدها واقواس نصرها وحماماتها العامة وعيونها ومسارحها وميادين قتالها والحياة فيها صورة من حياة رومية مصغرة من حيث توزيع الحنطة والدراهم والمآدب العامة والحفلات الدينية الكبرى والالعاب الدموية . الا ان دراهم الولايات في رومية

هي التي تؤدي النفقات اما في المدن فان الاشراف انفسهم يقومون بالنفقات اللازمة للحكومة والاحياء .

وكان الخراج الذي يجبى لحساب الامبراطور يذهب اليه برمته ولذلك اقتضى ان يقوم الاغنياء على نفقتهم بالاحتفال بالالعاب واحياء الحمامات وتبليط الشوارع وانشاء الجسور والمجاري والملاعب . قاموا بكل ذلك مدة قرنين و تخلوا عن سعة في اقامة المصانع المنشأة في ارض المملكة والوف من الكتابات المزبورة على الاحجار شاهدة بذلك ابد الدهر

كان بين جبال البيرنيه ونهر الرين نحو مئة وعشر مدائن ولم تكن كوراً مدمجة على نحو ما يوهمه نظام المجالس البلدية فيها بل انه كان لمعظمها ارض مساوية لولاية او ابرشية وهكذا كنت تجد بين نهري اللوار والسين مدن سانس وسواسون واورليان وكانت باريز ولوبون وشالون وبوفي ولاون وسواسون واميين فقط حواضر مدن وكانت المدن في اقليم البروفانس حيث نزل الرومان منذ عهد متطاول اكثر ازدحاماً وكنت ترى في اقليمي فوكلوس ودروم فقط مدن افنيون وكاربنتراس واورانج وكافايون وفيزون وسان بولس ودي وفالانس . وفي ذلك العصر حفظت اجمل المصانع ففي مدينة نيم ترى الملاعب والمعبد المسمى البيت المربع والقناة المعروفة بجسر الحرس وفي مدينة آرلس الملاعب وفي مدينة اورانج المسرح وقوس النصر ولكن جميع المدن كان لها مصانع من هذا النوع . وقد عثروا في باريز اصغر مدن الغاليين على حمامات حارة وحمامات معدنية بالقرب من دار كلوني وعلى ملاعب في شارع مونج . وما من متحف الا وترى فيه محفوظاً الى اليوم بعض بقايا المعابد والمجاري والفسيفساء وقبوراً رومانية

اسباب الغارة

الجرمان — كان يسكن وراء نهري الرين والدانوب (الطونة) في البلاد التي تتألف منها اليوم المانيا شعوب غير متمدنة كان الرومان يدعونهم الجرمانيين وكانوا كالهنود والفرس واليونان والرومان شعوباً من عنصر آري نزحت في القديم من قارة آسيا وهم شعوب من الرعاة ضعفوا حراثين وشعوب محاربين وكانوا ينقسمون الى عدة قبائل (نحو اربعين) تحكم كل واحدة نفسها منفصلة عن الاخرى وكثيراً ما كانوا يناوشون بعضهم بعضاً الحرب

وكان معظم المقاتلين من الجرمانيين لايحبون الا الحرب ويقول تاسيت انهم كانوا كلما انقطعت شأفة الحروب من بينهم يقضون اوقاتهم في الصيد ويتخلون عن كل عمل الا النوم والأكل . وكان اشجعهم واكثرهم شدة في القتال لايتعاطون عملاً يتركون العناية ببيوتهم وحقولهم للنساء والشيوخ والضعفاء ويعيشون كالعاطلين . وكان في كل شعب كثير من الناس جعلوا الحرب والغارة صناعتهم يجتمعون حول محارب شريف او مشهور ويتفقون بان يخلصوا له الخدمة وعلى هذه الصورة تتألف عصابة من الاصحاب علامة زعيم يعيشون في داره ويأكلون في مائدته يخفرون اياه الحرب ويفادون بارواحهم في سبيل الدفاع عنه . وكانت تشتد حاجة هذه العصابة الى الحرب فالرفاق يتسلوا عن هذه الحياة المقصورة على الأكل والبطالة والرئيس ليقوم باود رجاله وطالما يسود السلام في الشعب تنصرف عصابات المحاربين للقتال مع رئيسها في جيش احد الشعوب او يحاربون في حسابهم وكانت الامبراطورية الرومانية تستميلهم للقيام بهذه الاعمال فبعضهم يقيمون في ولايات الحدود يحرسونها والآخرون يدخلون في خدمة الرومانيين يقاتلون المهاجمين من الجوارة وكثيراً ما يعودون متمتعين بثروتهم او جاههم ولكن كانت لكثير منهم نزعة التشرد فلا يكادون يرجعون الى مساقط رؤوسهم . وقد ادى هذا النظام الى فناء جميع القبائل النازلة في التخوم الرومانية ثلاثة قرون الا وقد زالت العصابات الرحالة ولم يبق شيء من حالات الشعوب حتى اذا جاء القرن الثالث ظهرت معاهدات تحت اسماء جديدة ليست اسماء شعوب وهي ثلاثة الالمان في الشمال الذي يتألف من نهر الرين والدانوب الاعلى والفرنك في المجرى الاسفل من نهر الرين والسكسون على طول بحر الشمال وكان لكل جماعة من تلك الجماعات الصغرى التي تكون منها تلك المعاهدات زعيم يسمى ملكا ويحارب في العادة على نفقته .

انحطاط السكان في الامبراطورية الرومانية — جرى اذ ذاك في الامبراطورية الرومانية مثل ما جرى في جميع المجتمعات القديمة كسبارطة ويونان وايطاليا اي انه قل عدد السكان واضمحل الاحرار وحلهم العبيد ولم يكن لهذا الشعب من العبيد حظ من النمو بل كان اذا حدث كائن من الكوائن التي يكثر حدوثها في ذلك العهد من وباء وحرب وغارة يلي زوابع ذلك العصر فتظل الارض غير مأهولة ولم تنبت القرى على التدريج ولاسيما من جهات التخوم ان فرغت من الرجال ولم يبق سكان الا

في المدن واصبحت عدة اصقاع أشبه بالقفار منها بالارياف

وبعد ان اجتازت بالبلاد جيوش المخربين المطلقين في القرن الخامس (امثال رادا كيز واتيلا) احدث في البلاد فراغ اشكل على الامبراطورية ان تملأه ففي بلاد الغال وسويسرا وايطاليا بل في بلاد الغرب اجمع بار شطر كبير من الاراضي لقلة اليد العاملة واصبحت الولايات الواقعة على التخوم مقفرة ولم يبق في كل البلاد التي يسقيها نهر الدانوب من سويسرا الى البلقان ولا مدينة رومانية واحدة واضمحل السكان حتى انه منذ القرن الرابع لم يبق في جميع هذه البلاد الا شعوب جرمانية او سلافية وهكذا الحال في البلجيك لم يجد الفرنك فيها غير القفر

انحطاط الجيش الروماني — دعت هذه البلاد المقفرة الناس الى سكناها فكان البرابرة يحاولون على الدوام ان يدخلوها وكان من السهل على الحكومة الرومانية ان تدفعهم عن البلاد كما كان لها جيش في الجملة ولكن آلت الحال في قلة الجند كما صارت في قلة المال بحيث كان من الصعب ابداً تجنيد العدد اللازم فاعتاد السكان عيش الدعة ولم يعودوا يرضون ان يقادوا بانفسهم في الجيش فاضطرت الحكومة ان تطلب جنداً من كبار ارباب الاملاك وهؤلاء يسوقون بعض المزارعين (المستعمرين) في اراضيهم فيأخذونهم بالقوة من وراء سككهم ومحاريثهم فلا يكون منهم الا جند سيء النظام فقد أصبح المجندون في القرن الرابع من الضعف بحيث لا يستطيعون لبس الدروع واخذوا يستعفون عن الخوذة بالبيضة

ولما كان القواد يؤثرون ان يستخدموا محاربين من البرابرة لانهم يقاتلون في ساحة الوغى مستميتين وكان في الامبراطورية منذ عهد طويل جنود من الجرمان في خدمة الامبراطورية وفي آخر القرن الرابع اخذ الرومان يجندون عصابات برمتها يجعلونهم مع نسائهم واولادهم وخدمتهم في اراضي يعطونهم اياها ليأخذوا منها أرزاقهم وعلوفاتهم وهؤلاء المحاربون الذين نزلوا في البلاد الرومانية كانوا يحتفظون بلسانهم وعاداتهم واصول حروبهم وزعمائهم ولكنهم يحاربون في الجيش الروماني ويدعونهم الاجراء او المحالفين وجاء القرن الخامس فلم يكن منهم عصابات فقط بل شعوب برأسها مثل الويزغوت والبورغوند فاجتازوا الحدود بالقوة احياناً فبدلاً من ان يقاتلوا الامبراطور آثروا ان يكونوا في خدمته . فتألفت اذ ذاك جيوش رومانية من شعوب بربرية يقودها قواد منهم لقد رأينا الجيش الروماني الذي رد غارات اتيلا سنة ٤٥١

مؤلفاً من الويزيغوت والفرنك والبورغوند وايسيوس القائد الروماني هو في الاصل كاتيلا نفسه

اخلاق الغارة — كان في الامبراطورية الرومانية أراض كثيرة وجند قليل ولما كان البرابرة كلهم رجال حرب ويريدون ان يتملكوا الاراضي اخذوا يملكونها تارة بقوة والعداء واخرى مقابل خدمة وفي صورة محالفين ودخول البرابرة الى الامبراطورية هو الذي نسميه غارة البربر (او يطلق الالمان عليه هجرة الشعوب) وهذه الغارة لم تحدث دفعة واحدة بل وصل الجرمانيون عصابة أثر عصابة وتاريخ العصابة الاولى سنة ٣٧٦ والعصابة الاخيرة وقعت سنة ٥٦٨ فدامت الحركة اذاً في الغرب زهاء قرنين ودامت من جهة المشرق خلال القرون الوسطى كلها ولم يكن بذلك حرب ولا فتح ولم يتألب الجرمانيون ليتقاتلوا بل كانوا على العكس يثيرون السكان بعضهم في بعض بحيث استحقوا اعجاب كتبة الرومان معاصريهم . قال بول اوروز انا نرى كل يوم أمة من هذه الامم البربرية تبيد أمة أخرى ولقد شاهدنا جيشين من القوط يفني احدهما الآخر ولكن هذه الشعوب تتقاتل تموت وتهلك . والظاهر ان الجرمانيين لم يقصدوا الرومانيين بل كانوا يحاربون من أجلهم عن رضىً دافعين غارات غيرهم من الجرمانيين ايضاً ولم يكن لهم مأرب في القضاء على الامبراطورية بل كانوا يؤثرون ان يكونوا في خدمتها . قال اتولف احد ملوك القوط انه كان يطمع اولاً في ابادة الاسم الروماني وان يؤسس من خلال الاراضي الرومانية وعرضها امبراطورية يدعوها القوتية يكون شأنه فيها شأن القيصر اغسطس ولما وقع في نفسه ان القوط لا يعرفون النظام والترتيب ويخضعوا للقوانين عقد العزم ان يفادي بقوى القوط لتوطيد سلطة الرومان وزيادة نفوذهم وكان يطمع ان يكون مصلح الامبراطورية اذ لم يكن في طاقته ان يؤسس مثلها مباشرة وكان البربر يدخلون الامبراطورية بدون ان يكون لهم منزع سياسي بل بمجردتهم كانوا يرجون ان تكون حالهم فيها احسن من جرمانيا ولكن نشأت من دخولهم البلاد نتائج لم يحدث بها احد اذ ذاك .

البربرية — كان من اقرب النتائج ان تصبح الامبراطورية الى التوحش اقرب منها الى المدنية فمضى زهاء قرن وعصابات مسلحة تطوف البلاد انواع التطواف تحرق المدن وتخرب المصانع وتقتل الخرائبين او تسوقهم امامها ولا سيما الوندالبون الجرمانيون حتى عدت لفظة الوندالية تطلق للدلالة على التكالب في التخريب وكان يقول اوروس

وهم شعب من فرسان التتار ان العشب لا ينبت بتة في التربة التي وطئتها حوافر خيولهم . فقد خربت مدن كثيرة ولم تقم لها قائمة وبعضها تراجع عمرانه حتى غدا بمثابة دساكر حصينة تخربت دور التمثيل والحمامات والمدارس وجميع المصانع الرومانية شيئاً فشيئاً واتخذ السكان في كثير من المدن احجارها ليبنوا بها اسواراً وهلك ارباب الصناعات النفيسة فلم يبق سوى صناع قليل عددهم لا يستطيعون ان يصنعوا الا مباني ليس عليها مسحة من الذوق والجمال . واضمحل كل ما يقال له مشاهد ومدارس وادب وغدا سكان الامبراطورية يشبهون البربر . قال احد القسيسين ممن كتبوا تاريخ ملوك الميروفنجيين والاسف آخذ منه كل مأخذ : لقد هرم العالم وانقطعت فينا حاسة النكات البديعة فما من امرئ عهدنا تحدثه نفسه ان يبلغ مستوى خطباء الزمن الماضي .

شعوب جديدة — قضى البربر في اوربا على نظام الامبراطورية الرومانية بجملتها سنة ٤٧٦ وليس في رومية امبراطور وكل ملك من ملوك البربر سيد في الارض التي وطئها قومه (١) فانقسمت الامبراطورية الى عدة ممالك بربرية فنشأت في غاليا ممالك الفرنك والبورغوند وفي بريطانيا العظمى السبع الممالك من الانكل والسكسون وفي اسبانيا مملكة الويزيغوت وفي افريقية مملكة الوندال وفي ايطاليا مملكة الاوستروغوت ثم مملكة اللومبارديين وكثير من الممالك اضمحلت ودخلت في مملكة مجاورة ولكنه نشأت في كل مملكة امة مستقلة على الاقل لها حكومتها وصناعاتها وآدابها .

اخلاق جديدة — انتهت ايام المدنية القديمة بدخول الجرمانيين الى الامبراطورية وليس ذلك ان الجرمانيين حملوا مدنية جديدة كالرومان الى غاليا ولا انهم اتخذوا العادات القديمة كما اتخذ الفرس عادات آسيا بل انهم اتوا ولهم عادات في الحياة والحكومة تخالف ما ألفه الرومان فيما انخفض من بلاد الامبراطورية .

فكان ارباب الاملاك من الرومان يعيشون في المدن عزلاً من الاسلحة خاضعين لموظفي الامبراطور اما الجرمانيون فقد ظلوا يحملون اسلحتهم ونزلوا القرى وكان لكل واحد في حلته جند من الخدمة المخلصين وكل امرئ سيد في ارضه لا يخضع بتة

---

(١) عاد البربر فنزلوا في جميع تخوم الامبراطورية التي ملك سكانها محافظين على اخلاقهم ولغتهم الجرمانية فالفلامنديون في البلجيك والفرنك في الشاطئ الايسر من نهر الرين والسواب في سويسرا والبافاريون في بافيرا والنمسا ونزل بين نهر الدانوب وبلاد البلقان شعوب من عنصر سلافي مثل الكرواتيين والصربيين

الحكومة وهم محتفظون بعاداتهم الجرمانية من عدم اداء الضرائب وبذلك قضوا على نظام بيت المال وعلى الاستبداد الامبراطوري ومن هؤلاء الاحرار القرويين خرج فيما بعد الفرسان الاشراف ·

وكان اصحاب الاملاك من الرومانيين يحرثون اراضيهم بواسطة جماعة من العبيد اما الجرمانيون فكانوا يعتمدون في استثمار اراضيهم على اناس من المستعمرين اي على مزارعين يتناوبون حراثتها بالارث · ولم يبطلوا العبودية من الامبراطورية بل تركوا العبيد يصبحون بالتدريج خدمة ثم مزارعين يملكون الارض التي يتوفرون على زراعتها ·

وعليه فلم يأت البربر بعقائد ولا باختراعات جديدة بل جاؤوا يحملون عادات بدلت حالة ارباب الاملاك والفلاحين وغيرت جميع قواعد الحكومة · فغارة البربر حادث عظيم في تاريخ المدنية لانه جدد المجتمع والحكومة في اوربا ولكنه كما يحدث في التغييرات الكلية قضت الحال بمرور عدة قرون لادراك نتائج ذلك التغيير

كيف دان الجرمانيون بالنصرانية

الارباب الجرمانيون — كان الجرمانيون كاليونان والرومان يعبدون اربابا كثيرين يتمثلونها في صورة بشرية · فالارباب الجرمانيون يؤلفون أسرة باسرها وعندهم ان «وتان» والد الجميع ورب الحروب محارب اعور يتقلد رمحا يخرق الهواء ولا يرى بل يركب على حصان ابيض وكان دونار احد ابنائه ذا لحية حمراء وهو رب الرعد والعواصف يسير في مركبة ويقذف المطرقة الحربية التي تعود الى يده من تلقاء نفسها · وكان الرب تير او ساكسنوت رب السيف والمغازي وفري على العكس هو الرب الجميل الناعم اللطيف ينضج المزروعات ويشفي الامراض وبالدير رب الحكمة والعدل والصلاح يتولى نصح سائر الارباب · وهنالك ربات مثل الربة فريغا امرأة الرب وتان وهي قاسية محترمة تترأس حفلات الزواج والربة فريا وهي فتاة بارعة الجمال لطيفة الشكل يسر مرآها الارباب

وكانت هذه الاسرة السماوية تسكن قاعة عليا اسمها الوالهالا حوائطها ذهب وسقوفها فضة ويربط تلك العلية بالارض التي يسكنها البشر جسر وهو قوس قزح الذي يجتاز عليه الارباب ويجلس الرب وتان في هذه القاعة على منصة من ذهب يحف به من الارباب ذكورهم واناثهم ويذهب الوالكيور وهن مرسلات سماويات وبنات الحروب

والغادات مسلحات بالتروس والرماح راكبات على خيول مطهمة قاصدات الى ساحة الوغى يلتقطن من قضوا فيها وهم يحاربون ويأتين بهم الى قاعة الوالهالا حيث ينالون مكافأة عن شجاعتهم. وهناك يعيشون بالقرب من الارباب في المآدب التي يأدبها الارباب المعروفات باسم والكيور اللاتي يسقينهم شراب العسل والجعة .

ونحو الشمال من اعماق الارض جهنم مظلمة يكثر زمهريرها اسمها نيفلهيم اي مسكن الضباب وفيها يتزل رب الشر المدعو لوكي مع ولديه فنريس الذئب المفترس وهولا[١] ربة الموت التي يمثلونها بان نصفها اسود تأكل في صفحة الجوع ولا تترك ما تتناوله بتة . والى هذا المسكن الهائل يذهب الخائرون الاشرار الذين تساهلوا بان يتجرعوا كأس الحمام بسبب مرض او شيخوخة . وغلب الرب وتان الرب لوكي وربطه الى ثلاث صخرات ذات زوايا مع حية تقطر سمها على رأسه ولكنه يرجى له الخلاص ذات يوم ويأتي مع الجن والشياطين الشريرة على سفينة بنيت باظافر الموتى يهاجم الارباب الساكنين في الوالهالا وبذلك تسقط الشجرة الكبرى التي تمسك العالم من السقوط ويحترق قصر الوالهالا ويغلب الارباب على امرهم وهذا ما يسمونه عندهم شفق الارباب ثم تجلى ارض احسن من تلك تخرج من البحر المحيط مع ارباب جدد[٢]

العبادة — لم يكن للجرمانيين اصنام ولا شادوا لهم معابد بل كانوا يعبدون اربابهم على الجبال او في الغابات بالقرب من شجرة او عين مقدسة وكان رأس كل أسرة يقيم باسمه الصلوات ويقدم القرابين ولم يكن عندهم كهنة جرمانيون في جرمانيا نفسها الا نادراً حتى ان العصابات التي دخلت منهم الى الامبراطورية الرومانية لم تصحب معها احداً منهم . ودين مبني على هذا النحو لا يهتم احد للدفاع عنه فلم يكن من شأنه ان يقاوم طويلاً ولذا كان الجرمانيون عندما داهموا الامبراطورية مستعدين لان يدينوا بالنصرانية

البرابرة الآريون — لما نزل برابرة الشمال لارض الرومانية دانوا الا قليلا

---

(١) ومن اسمها اخذ الالمان اسم جهنم فقالوا عنها بلغتهم هول

(٢) لم يبق للجرمانيين كتاب يذكرونه ولكن الشعوب السكندينافية (الدانيمركيون والسويديون) كان لهم دين يشبه دين الجرمانيين عرفناه من الكتاب المسمى « الادا » اي الجدة الذي كان كتب في ايسلاندا .

الكثلكة بل بشيعة الآريوسية فقد كان القوطيون في اسبانيا والاوستروغوتيون في ايطاليا والبرغونديون في غاليا والونداليون في افريقية بل واللومبارديون الذين اتوا في القرن السادس كلهم من اهل المذهب الآريوسي · والظاهر ان الجرمانيين صعب عليهم ان يقبلوا بالرمز الذي جرى الآباء عليه في مجمع نيقية وربما ترددوا في التصديق بان الابن مساوٍ للآب · وكان رعاياهم الرومان ارثوذكسيين في مذهبهم وقد ادى هذا الاختلاف في الدين مدة تزيد عن قرن الى حروب واضطهادات وكثيراً ما كان احد ملوك البرابرة يأبى تعيين الاساقفة الارثوذكس وقد بقي كرسي قرطاجنة خالياً مدة اربع وعشرين سنة ولم يكتف جنزيك ملك الوندال بنفي الاساقفة بل وأراد ان ينفذ على رعاياه الكاثوليك الاوامر التي كانت وضعتها الاباطرة على الملاحدة ومع هذا كتبت الغلبة للكثلكة على المذاهب النصرانية الاخرى ودان بها بالتدريج الملوك الآريوسيون وتمذهب بها شعوبهم فانتحل البرغونديون هذا المذهب في اوائل القرن السادس وانتحله الوزيغوتيون الاسبانيون في سنة ٥٨٩ واللومبارديون في اواسط القرن السابع اما الاستروغوت فقد حاربتها جيوش الامبراطور يوستنيانوس ·

انتحال الفرنك (الافرنج او الفرنك او الفرنسيس) النصرانية — بقي الفرنك الذين نزلوا غاليا من الشمال على وثنيتهم · وقد فضل الاساقفة الارثوذكسيون هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يأملون تنصيرهم بدلاً من البرابرة المسيحيين الذين ظلوا على اريوسيتهم ورضي احد زعماء العصابات الفرنكية واسمه كلوفيس ان يتعمد على يد اسقف ريمس القديس ريمي فحذا حذوه ثلاثة آلاف رجل ولم يلبث زعيم العصبة هذا وقد عضده رجال الكهنوت الكاثوليكي ان اصبح وحده ملك غاليا كلها ومنذ ذلك العهد اصبح جميع ملوك الفرنك من نسل كلوفيس مسيحيين وعضدوا الكنيسة الارثوذكسية وكان ذلك من جملة الاسباب في نجاحهم اما عامة الفرنك فقد ابطأت في انتحالها هذا الدين فظل كثير من الغالبين زمناً طويلاً على وثنيتهم ومنهم من كان من حاشية الملك · وفي اواسط القرن السادس صادفت الملكة رادغوند وهي مسيحية غيورة في الطرق العامة جنازة وثنية فامرت المحاربين من اهل موكبها ان يثبوا عليها فقام الفرنك بسيوفهم وعصيهم · ومضى زهاء قرنين اي من القرن السادس الى السابع حتى غدا الفرنك كلهم مسيحيين

قاعدة القديس بنوا — أنشئت في ايطاليا واسبانيا وغاليا منذ القرن الرابع اخويات نسيبيين ولكن المعيشة التي يعيشونها في هذه الاديار من بلاد الغرب لم تشبه عيشة النساك في ثيبة [1] وفي اواخر القرن الخامس انقطع احد اشراف الايطاليين واسمه بنوا (٤٨٠—٥٤٣) الى جبل كاسين في بلاد نابولي وذلك بعد ان عاش بضع سنين متنسكاً في غار وسط الصخور وكان ثمت معبد وغابة على اسم ابولون فبشر بنوا فلاحي ذلك الجوار وامرهم بان يحرقوا ذلك المعبد واقام بدلاً منه كنيستين وديراً عظيماً وغدا بنوا رئيس اخوية كبرى وانشأ نظاماً طويلاً للنسيبية قاضياً عليهم ان يتخلوا عن الدنيا وعن الأسرة والملك وان لا يملكوا شيئاً لانفسهم حتى ولا الصفائح (الدفورات) والمناقش التي يكتبون بها وان يلبسوا كساء من الصوف الخشن او مسوحاً ذات قبعات (اسكيم) كان يلبسها الفلاحون وان يخضعوا بدون تردد لكل مايصدر عن الرئيس من الاوامر قال القديس بنوا في المدخل : اسمعوا ايها الابناء اوامر الرب ولا تخافوا من الائتمار باوامر اب صالح والعمل به وذلك حتى يعود بكم الخضوع التام الى ما ابعدكم عنه العقوق والكسل . وقد سمى الدير مدرسة العبودية الالهية وفي ذلك لم يأت القديس بنوا شيئاً سوى الجري على مثال رهبان المشرق ولكنه يختلف عنهم في كيفية استعمال الوقت فبدلاً من التأمل واعمال النسك امر بالعمل قائلاً ان الكسل عدو الروح وفي الجملة فان حياة الراهب داخلة تحت القاعدة ساعة فساعة فعليه ان يعمل كل يوم بيديه سبع ساعات ويقرأ ساعتين وينقسم اليوم الى سبعة قداديس يبدأ الاول منها في الساعة الثانية ليلاً . واذا اراد رجل ان يدخل في هذه الطائفة يقبل فيها على سبيل التجربة مبتدئاً وبعد شهرين تتلى على مسامعه قاعدة : « هذا هو القانون الذي يجب عليك ان تقاتل تحت لوائه فان كنت في مكنة من الاحتفاظ به فادخل والا فانت حر ان تذهب من هنا بسلام » وبعد سنة يوقع على عهد يضعه على المذبح بحضور جميع القسيسين ثم يركع امام كل واحد منهم على حدته ومنذ ذلك اليوم يوقن بانه لم يعد يملك شيئاً حتى ولا جسمه . ولم تلبث قاعدة القديس بنوا ان اصبحت عامة على رهبان الغرب اتخذتها جميع الاديار القديمة وعليها أنشئت جميع الاديار الجديدة واصبح بعد حين عامة رهبان الغرب من البندكتيين .

---

[1] (١) بلاد ثيبة Thebaide هي صحراء في مصر العليا بين سلسلة جبال بلاد العرب وسلسلة لوبيا انقطع اليها النساك الاول من اهل النصرانية ومدينة ثيبة عاصمة تلك البلاد

الرهبان البندكتيون — ولد قديس من بلاد ايطاليا في القرن السادس فاصبح عمره ٢٠ سنة ولشدة الظلمات المحيطة بالبلاد اسس الرهبان الذين يعيشون بالرهبانية [illegible] وبين الموضع والتوحيد يعيشون في معبد او بعض الاديرة ثم استبدلوا باحياء موات الاراضي العامرة وكثيراً ما يعطيهم احد الملوك او الكونتات او الامراء قطعة واسعة (اذا كانت هذه الارض رخيصة الثمن) فيؤسسون ديراً جديداً ولقد كان الرهبان يتقنون الاعمار زرعاً وصنعاً وعلماً ويحرثون الارض ويعتنون بالماشية ويستقبلون الزوار الطارقين ويعالجون المرضى ويستنسخون المخطوطات فكانت اديارهم حقولاً نموذجية كما هي معامل ومدارس [illegible] من الصيد والزراع في اصقاعهم قرية كبرى فكما نشأت في اوربا مدن من المدن حول الاديار وكثير من المدن سميت باسم القديس رئيس ديرها الاول [illegible] وانشئت الوف من الكنائس الجوارية في بعض اديار البندكتيين .

عصر الانكليز السكسونيين — يروى ان القديس غريغوريوس رأى قبل ان يصير بابا في سوق العبيد في رومية اولاداً شقراً بيض البشرة يباعون فسأل من اين أتى بهم فاجيب انهم انكليز فقال لقد دعوا ملائكة لا انكليز [illegible] او هم وثنيون؟ فقيل له انهم وثنيون فقال هل من الممكن ان تحرم هذه الخليقة وكأنها محرومة من نعمة الانجيل ، ومنذ ذلك الحين رأى ان يرسل الى الانكليز ولما صار بابا بعد اربعين سنة [illegible] جنود المسيحيين الى [illegible] الانكليز فوصل المرسلون يحملون لوحة رسم عليها المسيح وصليب الفضة على العلم وسألوا [illegible] الخبر الجديد فوقف احد الحكماء في المجلس وقال [illegible] ليحدث ايلا في ليالي الشتاء عندما تكون جالساً في القاعة مع رجالك ونار تشتعل دافئة والسماء تمطر ثلجاً والريح تعصف في الخارج [illegible] في القاعة داخلاً من باب وخارجاً من آخر وهذه [illegible] النار [illegible] يدخل الغرفة تحتويه فلا يتعرض للمطر والاعاصير الشتاء ولكن هذه الحياة قصيرة لان الطائر لا يلبث ان يخرج ويعود الى الشتاء الذي كان فيه وكل هذه الحال [illegible] حياة الناس في الارض بالنسبة الى الوقت [illegible] في الآخرة فلا [illegible] الحياة قصيرة ولكن الى اين تجيء بعدها واي وقت يمضي قبلها فنحن في جهل فاذا كان هذا الدين الجديد يطلعنا في ذلك النور [illegible] فهي جديرة بان تقبل ، بدأ بها [illegible] وكانت النصرانية

ترق عقول هؤلاء البرابرة المهتدين لانها تحدثهم عن اليوم الآخر . وقد نصح البابا المرسلين المسيحيين ان لا يناقضوا المعتقدات القديمة لانه يجب الاحتراز من تخريب معابد الاوثان بل الواجب تطهيرها وتخصيصها بعبادة الاله الحقيقي لان الامة كلما رأت اماكن عبادتها القديمة باقية تكون اكثر استعدادا الى الاختلاف اليها كالمألوف والعادة فلقد اعتاد رجال هذه الامة ان يذبحوا البقر ضحايا فالواجب ان يبدلوا هذه العبادة بافراح مسيحية ودعهم يبنون أكواخا من ورق الشجر حول معابدهم المحولة كنائس يجتمعون فيها ويقودون اليها حيواناتهم التي يذبحونها للاكل مثل ضحايا للشياطين ولكن في سبيل الله تعالى . ولم يضطهد الانكليز السكسونيون المرسلين المسيحيين بل انهم تنصروا الا بعضهم وذلك لان الملوك ولاسيما الملكات تحمي الديانة الجديدة كما هي الحال في غاليا ولكن الفلاحين لم يسرعوا لقبولها

المرسلون الايرلنديون — دانت ايرلاندا بالنصرانية منذ القرن الخامس وكانت اذ ذاك مشهورة بأديارها العديدة وحمية كنائسها العصبية فكانت تلقب بجزيرة القديسين فسافر مرسلون من اديار ايرلاندا ونصروا جميع جزيرة بريطانيا العظمى فالتقوا اذ ذاك بالمرسلين القادمين من رومية . وكان لكنيسة ايرلاندا ومؤسسوها آتيون من اهل آسيا بعض عادات شرقية فتحتفل بعيد الفصح مثلا في غير الوقت الذي تحتفل به كنيسة رومية واستعملت في صورة تكليل الاكليروس اي حلق مقدم الرأس بدلا من الاكليل في صورة تاج . وهذه الاختلافات في الصورة دعت الى اشتداد العراك بين المرسلين الايرلنديين والمرسلين الرومانيين فحضر المحاورة زعيمهم بحسب ما لكل منهم من المكانة واليك ما ذكره احد الكتاب الانكلوسكسون عن نزاع عظيم وقع بينهم في سنة ٦٦٤ بحضور جميع مجلس الشعب . صرح كولمان الايرلندي بان مواطنيه لا يستطيعون ان يبدلوا طريقتهم في الاحتفال بعيد الفصح لان ذلك ما ألفه آباؤهم الاولون وبلفريد السكسوني : انه يحتفل بالفصح كما رأيناه يحتفل به في رومية حيث عاش الرسولان بولس وبطرس وكذلك في غاليا وجميع الامبراطورية والبريتونيون فقط يعاندون في مشاركة بقية العالم وهل في الكنيسة ان يفضل ايوك كولومبا على قديسيه فيه على السعيد امير الحواريين الذي قال له سيدنا يسوع انك بطرس وعلى بطرس الحجر وبهذا الحجر ابني كنيستي وادفع اليك مفاتيح ملكوت السموات — فسأل الملك حينئذ كولمان الايرلندي قائلا : أحق ان هذه الكلمات قالها سيدنا المسيح للقديس بطرس ؟

— [illegible] — [illegible] — لا أستطيع — [illegible] مفاتيح السموات [illegible] — نعم — [illegible] أبواب السماء [illegible] في كل [illegible] لا أحد أبداً [illegible] ملكوت السموات [illegible].

وهذه الحيلة كانت [illegible] في الكنيسة [illegible]

[illegible] في ألمانيا — [illegible] في القرن السادس [illegible]

[illegible]

وقد بقي [illegible] في جميع البلاد [illegible]

الاسلام

دين العرب الاول — امتدت تخوم المملكة الرومانية في الشرق عند رمال بلاد العرب. ظل هذا الشعب مستقلاً بربرياً منقسماً الى عدة قبائل وكان لسكان الساحل من العرب بعض مدن صغرى تعرف الزراعة وتبعث بقوافلها الى الغرب تحمل اليهم البن والبخور والتمر ويطوف سكان الناحية القفر بمواشيهم مسلحين واكثر مجهودات حروبهم نصفهم رعاة والنصف الآخر قطاع طريق (كما هي عيشة البدو الى اليوم) ويقتتل العرب تقاتل القبائل البدوية ولكنهم يعتبرون انفسهم باجمعهم من عنصر واحد وهم كالاسرائيليين من العنصر الذي نسميه العنصر السامي وبمعزل عن آريي الهند واوربا امتيازاً ظاهراً بلغته ودينه . وقد كانت العرب تعبد الهاً قادراً خالقاً هو الله تعالى ولكنها تعبد آلهة خاصة وهي ارواح لا ترى وكان لكل قبيلة اله خاص تعبده في صورة نجم او حجر او صنم (١) ولكنهم كلهم يحجون في عاداتهم الى الكعبة في مكة وهي البيت المقدس الذي يعتقدونه قديماً والكعبة معبد على صورة المكعب او زهر النرد جدرانها من حجر غير منحوت مغشاة بحلة من الصوف ويحفظون فيها الحجر الاسود المشهور المحترم عند العرب اجمع (وهو قطعة من حجر بركاني تحت اليوم الى اثني عشرة قطعة (كذا)) وقد وضعت كل قبيلة في الكعبة صنماً خاصاً بها ويقال انه كان فيه ٣٦٠ صنماً ومنها صنم لابراهيم وصورة العذراء مع ابنها يسوع وانشأت قريش مدينة مكة الصغرى حوالي القرن الخامس في الوادي الضيق الذي تحيط به الصخور الماحلة محيطة بالكعبة ويقام فيها كل سنة سوق واعياد يتنافس فيها الشعراء وتبطل في خلال ذلك الحروب فمكة كانت هي المدينة المقدسة التي يحج اليها الناس من اقطار بلاد العرب كافة .

محمد (عليه الصلاة والسلام) — ولد محمد في قبيلة قريش المقدسة وهم سادة مكة وسدنة الكعبة (ولد سنة ٥٦٩ — ٥٧٠) وعاش بعد اليتم الفقير الى سن الاربعين لا شأن له . وكان رجلاً عصبياً (٢) سوداوياً تنتابه عوارض من الحمى ونوبات عصبية وكان

---

(١) تهود كثير من العرب وكان بعضهم على دين النصارى

(٢) المترجم . آلمت قلبنا الامانة في نقل ما كتبه المؤلف ان نعرب عبارته على علاتها في الاسلام والرسول الامي العربي صلوات الله عليه هذا مع علمنا بان المؤلف نقلها كما كتبها بعض اعداء الاسلام في القرون الوسطى لتطلق لسان التعصب —

—الصميم وخرج بحثه عن طور المؤرخ الى طور الطاعن الهجاء والمجادل الزاري المتعسف وفي مطالعة كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي فانه قد تكفل بالرد على امثال سنيوبوس ولو كان المجال يحمل مناقشة لاوردنا نقولاً كثيرة عن علماء الافرنج انفسهم في سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عسى ان تكون جواباً لمن يكتب في القرن العشرين وما هو الا ابن القرن الثاني عشر او الثالث عشر بافكاره وتصوراته ونكتفي الآن بنقل جمل من كلام كارليل فيلسوف الانكليز في الرسالة المحمدية قال :

لقد اصبح من اكبر العار على كل فرد متمدن من ابناء هذا العصر ان يصغي الى مايظن من ان دين الاسلام كذب وان محمداً خداع مزور وآن لنا ان نحارب ماشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التي اداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس امثالنا خلقهم الله الذي خلقنا افكان احدكم يظن ان هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصاء اكذوبة وخدعة ؟ اما انا فلا استطيع ان أرى هذا الرأي ابداً ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الاولى بها ان لا تخلق . . . .

هل رأيتم قط معشر الاخوان ان رجلاً كاذباً يستطيع ان يوجد ديناً ينشره عجباً والله ان الرجل الكاذب لايقدر ان يبني بيتاً من الطوب . . . . وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية او يطمح الى درجة ملك او سلطان او غير ذلك من الحقائر والصغائر وما الرسالة التي اداها الا حقاً صراحاً وما كلمته الا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هي شهاب قد اضاء العالم اجمع ذلك امر الله

. . . ثم لاننسى شيئاً آخر وهو انه لم يتلق دروساً عن استاذ ابداً وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذ ذاك في بلاد العرب ويظهر لي ان الحقيقة هي ان محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء واحوالها وكل ما وفق الى معرفته هو ما امكنه ان يشاهده بعينه ويتلقى فؤاده من هذا الكون العظيم النهاية وعجيب والله أمية محمد انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ماتيسر له ان يبصره بنفسه او يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب ولم يشعر ولم يدر به انه لم يعرف علوم العالم —

—لا قديمها ولا حديثها لانه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد من نور اي انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع اشباهه من الانبياء والعظماء —اولئك الذين اشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور— من كان بين محمد وبينه ادنى صلة . . . .

واني لاعرف عنه انه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة لا يتناول غرضًا فيتركه الا وقد انار شبهته وكشف ظلمته وابان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام والا فلا وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهمة كريمًا برًا رؤوفًا تقيًا فاضلاً حرًا . . . .

ومما يبطل دعوى القائلين ان محمدًا لم يكن صادقًا في رسالته انه كان ... انه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة لم يحاول اثناءها احداث ضجة ولا دوي مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ولم يك الا بعد الاربعين ان تحدث برسالة سماوية . . . .

ايزعم الكاذبون ان الطمع وحب الدنيا هو الذي اقام محمدًا واثاره . حمق وايم الله وسخافة وهوس اي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالارض من تيجان وصولجانات اين الاثاث . اتعني والدول جميعًا بعد حين من الدهر الى مشيخة مكة والقضيب مفضض الطرف او سيف ملك كسرى وتاج ذهبي الذوائبة عند قيصر . وبعقوبة ؟ كلا اذن فلنضرب صفحًا عن مذهب الجائرين القائل ان محمدًا كاذب ونعد موافقتهم عارًا وسبة وسفاهة وحمقًا فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع . . . .

وقد قيل كثيرًا في شأن نشر محمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه فشد ما اخطأوا وجاروا فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ولكن ما هو الذي اوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق والرأي الجديد اول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم اجمع فاذا تناول هذا الفرد سيفًا وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع وارى على العموم ان الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال او لم تروا ان النصرانية كانت لا تأنف ان تستخدم السيف احيانًا وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون وانا لا احفل أكان انتشار الحق بالسيف ام باللسان ام بأية—

آية أخرى فالمدح الفائق تنشر سلطتها بالخطابة وبالصحافة او بالنار تدعها تكافح — وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم الا اذا كانت تستحق ان تهزم وليس في طاقتها ان تفني ما هو خير منها بل ما هو احط وادنى . . .

اما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو اكبر دليل على اختلاف الأذواق في الامم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب باكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة . . . . اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تجاوز الآذان واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير ان يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه وقد زعم براديه ولنشه ان طائفة من الأحاديث والفتاوي لفقها محمد لتكون له اعذاراً عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا ان نرفض جميع هذه الاقوال التي [illegible] محمداً بمثل هذه الاكاذيب وما كان ذو نظر صادق يرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل والقرآن لعمري ما هو الا جمرات ذكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس مخلص اوقدتها الافكار الطوال في الخلوات الصامتات . . .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً وشد ما نجور ونخطئ اذا حسبناه رجلاً شهوانياً لا هم له الا قضاء مآربه من الملاذ — كلا فما ابعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر اموره واحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ولهم ان يذكروا ونعم ما يذكرون انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل دائباً في نشر دين الله غير طامع الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة ودولة وسلطان غير متطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت رجل عظيم وربكم والا لما كان ملاقياً من اولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً واكباراً واعظاماً . . . .

ويكبر البعض غلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فاقول ان العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب من القرآن قد اقل جداً من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار وكل ما فيه عن هذا الشأن آية او تلميح واما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى الصقوها بالجنة ولا عذاباً ماديا ولا جثمانياً حتى اسندوه الى النار ثم لاتنسوا ان القرآن جعل اكبر ملاذ —

حنفياً اي كافراً بعبادات العرب ويسمون بهذا الاسم من لا يعبد الاصنام بل يعبد الهاً واحداً رب ابراهيم والد العنصر العربي · وكان رجال قبيلة محمد تنظر اليه بغير عين الرضى فسكن بين الصخور الجرداء المحرقة وفي سنة ٦١١ بحسب الرواية العربية علم محمد بأنه صاحب دين وظهرت له روح فائقة في قوتها سماها محمد بعد ذلك الملك جبرائيل قالت له : اقرأ فقال محمد : ما انا بقارئ · فقالت له اقرأ · ومنذ ذلك العهد رأى محمد نفسه ان الله عهد اليه مباشرة نشر الدين الحقيقي فبدأ يدعو زوجته وبناته اولاً ثم اصحابه ورجال مكة فقاومه زعماء القبيلة اجمع فاضطر الى الهجرة الى المدينة (سنة ٦٢٢)[1] ولما كان اهل المدينة اعداء لاهل مكة اعترفوا بنبوة محمد واطاعوه اطاعة واخذ المؤمنون بالرسول في ازدياد من اصحابه هاجروا من مكة يتبعونه فبدأ اذ ذاك يناوش قوافل مكة القتال و يغزوها فانتهى بخضوع اهل مكة ثم حمل جميع العرب على قبول دينه ·

ولم يأت محمد بمعجزات ولم يدع انه روح الهي بل كان يرى نفسه فقط رجلاً ملهماً يتكلم ويعمل باسم الله تعالى ويظهر في مظهر رسول ومصلح قائلاً ان الدين الحق كان منذ عهد آدم وهو ان يعتقد بواحد احد وان يخضع لاوامره التي يبلغها البشر على لسان انبيائه نوح وابراهيم وموسى وعيسى كانوا رسلاً · وما اليهودية والنصرانية الا اوهام مطلقة بل اشكال محرفة من دين الله الحق وهذا الدين الابدي هو الذي جاء محمد يدعو اليه قومه من العرب [illegible] و[illegible] وبالاسم الذي عظمه اتباعه · وقد اخذ جانباً من تعاليمه عن التوراة والانجيل[2] ولذا ساغ ان يقال ان محمداً مبتدع مسيحي والاسلام بدعة من بدع النصرانية في اصطلاح العرب ·

— الجنة روحانياً اذ قال « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها آمنين » فالسلام والامن هي في نظر كل عاقل اقصى اماني المرء واعظم الملاذ الحقيقية والشيء الذي عبثاً يلتمسه الانسان في الحياة الدنيا وقال ايضاً « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » والغل والحقد الخبيث من الغل مصدر المحن والمصائب والشر والآفات واي شيء اعظم من التآلف والتصافي · · ·

(١) اعتبرت هذه السنة في الهجرة هي اول سنة في تاريخ المسلمين كما ان سنة ولادة المسيح (عليه الصلاة والسلام) هي مبدأ التاريخ المسيحي

(٢) الظاهر ان محمداً لم يعرف شيئاً عن حياة المسيح الا من الاناجيل المزورة

القرآن — كان محمد أُمياً فلما اوحي اليه ودعا الى دينه كانت تنقل كلماته فكتبت على الحجارة وورق النخيل وعظام الجمال . والقرآن (الكتاب) هو مجموع هذه القطع (١) ضمت بعضها الى بعض لا على الترتيب الذي املاه محمد بل بدئ بالطوال ولم تجمع الا بعد وفاة محمد على يد امين سره زيد وبعد حين دونه الخليفة عثمان تدويناً رسمياً وهذا هو الذي نراه بين ايدينا (٢) وفي القرآن مواعظ وقصص وقواعد واحكام مبعثرة متفرقة فهو في آن واحد كلام منزل في الدين والاخلاق والنظام والدستور .

الاسلام — يسمى الدين الذي دعا اليه محمد دين الاسلام أي الاستسلام لارادة الله تعالى والذين يدينون به يسمون المسلمين (اي المستسلمين) والاسلام عبارة عن هذه الكلمات : « لا اله الا الله محمد رسول الله » فالواجب اذن الاعتقاد بالله الذي خلق العالم و يدبره وهو على عرشه والملائكة حافون به يجب الخضوع لارادته التي ابلغها الناس على لسان انبيائه وقد جاء القرآن بأوامره « الكتاب الذي يحوي الحقيقة » ومن يعتقد بالقرآن و يأتمر باوامره الالهية ينال الزلفى من المولى تعالى و يكافأ على عمله ومن يخل بايمانه ولم يخضع لسلطانه فهو مذنب عند الله يعاقبه و يجازيه

وسيأتي يوم « القارعة ما القارعة وما ادريك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية واما من خفت موازينه فامه هاوية ، وما ادراك ما هيه ، نار حامية ... وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ... اولئك المقربون في جنات النعيم ... متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق وكأس من معين لا يصدعون

---

(١) تألف منها ١١٤ قطعة كل منها سورة

(٢) اعتاد المسلمون منذ القرن العاشر ان يغالوا ببلاغة القرآن ولكن هذا الاعجاب ببلاغته لم يكن مألوفاً للعرب في القرون الاولى و يرى احد العارفين (دوزي) ان معظم آيات القرآن قد كتبت على العكس بلغة عربية تكاد تكون الى الركاكة (٢)

« ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . . . واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم »

اما الواجبات الدينية العملية فعلى المؤمن ان يصلي خمس مرات كل يوم في اوقات معينة وفي كل مدينة اسلامية يدعو المؤذن الى الصلاة من اعلى المسجد في الوقت المعين وعلى المؤمن ان يتوضأ للصلاة واذا لم يكن له ماء ان يتيمم بالتراب وان يصوم شهر رمضان لا يتناول الطعام فيه الا من الليل في الوقت الذي لا يتبين فيه الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وان يخرج من الزكاة عشر ماله (؟) على الاقل وان يحج الى مكة ان استطاع الى الحج سبيلا .

وادب الدين الاسلامي هو ان لا يرتكب المرء عملاً دنيئاً ولا يشرب الخمر ولا يراهن وان يتقبل ارادة المولى راضياً لان كل امرىء لا يخرج عما كتب له في الازل ولا سبيل له الى التخلص من المقدور فالاسلام هو دين القضاء والقدر .

انتشار الاسلام — دعا محمد سنة ٦١١ الى دينه وكان العرب عامة يوم وفاته سنة ٦٣٢ مسلمين اما بعضهم فعن اعتقاد والبعض الآخر بالقوة وذلك مثل اهل قبيلة الثاكيفيت Takifite (كذا) فقد بعثوا يقولون لمحمد انهم يدينون بالدين الجديد اذا رضي ان يعفيهم من الصلاة وان يترك لهم صنمهم اللات ثلاث سنين . فقال محمد ان ثلاث سنين في الوثنية يطول امرها فعرض الثاكيفيون ان يبقوا على عبادة الاصنام سنة فابى محمد وما زال يخفض المدة حتى ندم على هذا الاختيار وقال لا اريد ان اتم هذه المهادنة فليس عليكم الآن الا ان تخضعوا او نقاتلكم فطلبوا ان يبقوا على عبادة اللات ستة اشهر فابى عليهم ثم اكتفوا بمهلة شهر فلم يرض ان يمهلهم ساعة فاسلم اهل ثاكيفيت ودخل الظافرون المسلمون المدينة وحطموا الاصنام

وبعد وفاة محمد اخذ العرب ينشرون الاسلام بمثل هذه الطرق ولم يبعثوا الدعوة للشعوب الاخرى الى الاسلام رسلاً كالمسيحيين بل جيوشاً فقد قال الرسول وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فحرب المشركين جهاد مقدس والله مع المجاهدين ومن قتل منهم فجزاؤه الجنة .

وقد مضى الخلفاء بعد الرسول بهذا الجهاد فكانوا يبعثون الى جميع الشعوب المجاورة رسولاً يعلنون البلدان بتخييرهم بين ثلاثة امور : القرآن او الجزية او السيف ومن

ولم يكن كل سكانه بالأتراك ومن يعتصمون في دولة الخلافة يصبحون [illegible] ومن يقاومون يصبحون ولم يستطع أحد أن يقف في وجه هذه الجيوش التي عصفت بالمسلمين في الشرق في سورية وفلسطين وجميع ممالك فارس وأرمينية وتركستان وجزء من بلاد الهند وفي الغرب في مصر وطرابلس وافريقية واسبانيا وقطع جميع العلويين في أمرهم إلا قليلاً ولم يبق مسيحيون إلا في ولايات الامبراطورية القديمة وفي خلال قرن (٦٣٢ — ٧٣٢) انتشر الدين الجديد من تخوم الصين إلى بحر الظلمات [illegible] دون انتشاره بهذه السرعة [illegible] ممالك الخلفاء التي أخذت في الأفول وتكرر ذلك في جميع البلاد التي أخذ أهلها في الاسلام

وما فتئ الفاتح الاسلامي زاحفاً وحل [illegible] وكان [illegible] جديدة من الأتراك حملوا هذا الدين إلى القسطنطينية ولا يزال في وجهة يدخل [illegible] في هذا الحين في بلاد الهند والصين وماليزيا ولا سيما بين زنوج افريقية . والاسلام دين سهل على مستوى ذكاء الشرقيين . وبلغ عدد المسلمين اليوم نحو مائتي مليون . إذا كانت النصرانية دين أمم الشمال فالاسلام دين شعوب الجنوب .

المملكة البيزنطية

المملكة البيزنطية — كان الجرمان الذين أغاروا على بلاد الامبراطورية الرومانية وحلوا جيوشها الا قليلاً في الغرب ولما بقي في القسطنطينية امبراطور يحكم الشرق كله . [illegible] في القرنين الخامس والسادس أن الامبراطورية الرومانية محتفظة بجميع ممتلكاتها القديمة في الأقاليم وحكم [illegible] في آسيا الصغرى وسورية ومصر وفي جميع البلاد الواقعة شرقي البحر الادرياتيكي حتى لقد خضعت لها ايطاليا وافريقية وشطر من اسبانيا بضع سنين . ثم هاجمها المهاجمون فانتزعوا منها [illegible] السلافيون [illegible] وبلاد [illegible] في البلقان واقتطع منها العرب جميع افريقية وسورية وجزءاً من آسيا ولم يبق لها سوى قطعتين على جانبي مدينة القسطنطينية في الغرب تراقيا [illegible] وفي الشرق آسيا الصغرى . بيد أن [illegible] الامبراطورية الشرقية [illegible] احتفظت بحكومة الامبراطورية الشرقية [illegible] وحكومتها المطلقة وادارتها المتقنة . وظلت على هذا الحال الى أن استولى العثمانيون على القسطنطينية (١٤٥٣) وهذه الامبراطورية التي أصبحت [illegible] هي التي [illegible] بالبيزنطية . [illegible] — كان كل منصب الامبراطور وراثياً [illegible] في الامبراطورية

الشرقية أسرة مالكة فان دسائس القصر وثورات عامة القسطنطينية لم تكد تمكن الامبراطور الا في الندر من نقل سلطته الى اخلافه فكان معظم الامبراطرة مغتصبين للملك · واشهرهم يوستنيانوس (٥٢٧ — ٥٦٥) وهو ابن فلاح من ولايات الدانوب كان يرعى الغنم في منزله ودخل خاله يوستين بعد رعاية الغنم في الجندية وما زال ينتقل من رتبة الى اخرى حتى غدا كونتوراً (قائد حرس القيصر) ثم امبراطوراً واستدعى الى القسطنطينية يوستنيانوس الذي اشتهر ببذله المال للجند وتمثيله الملاعب امام العامة فنودي به امبراطوراً عقيب وفاة خاله ·

ومن شأن يوستنيانوس انه بحث عن كل مايزيد في اعجابه فتوفر على الشهرة بفتح البلاد والبناء المعاهد والمصانع وتقنين القوانين واراد ان يكون فاتحاً عمراناً مشرعاً · واذ كان غير صالح للحرب عهد الى صديقه بليزير ان يفتح البلاد باسمه وكان للامبراطورية اذ ذاك عدوان احدهما من الشرق وهي مملكة فارس الحربية والآخر من الغرب وهي الممالك التي أسسها البرابرة الجرمانيون في ولايات الامبراطورية القديمة وكان ملك الفرس صاحب حول وطول جيشه قوي ونظامه موطد الاركان وملوك البربر ضعفاء الحيل البذخ مقالتهم يمقتهم الشعب الكاثوليكي لانظام لهم ولا ترتيب · فكان يوستنيانوس من جهة الشرق يطلب ولم يستطع بليزير غير الدفاع عن آسيا الصغرى وان يعقد الصلح على شرط ان يدفع الجزية (٥٣٣) وبعد آخر مدته (٥٦٢) وقع على عهدة صلح جديدة متعهداً بان يؤدي كل سنة ٣٠٠٠ ذهب وقد وفق بليزير من جهة ممالك البربر كل التوفيق فافتتح مملكة الوندال في افريقية (٥٣٤) بحملة واحدة ومملكة الاوستروغوت في ايطاليا بعد حرب ثماني عشرة سنة (٥٢٥ — ٥٣٣) وتغلب على جنوبي اسبانيا اخذها من صاحبها احد ملوك الويزغوت · فحق ليوستنيانوس ان يفاخر بانه وحد شطراً من الامبراطورية الرومانية القديمة ولكن استيلاءه عليها لم يكن له من القوة مايدفع به ما فتحه من البلاد فلم يحم ايطاليا من غارة اللومبارديين ولا افريقية من العرب

وتوفر يوستنيانوس وهو البناء العمراني على ان يدافع عن الامبراطورية بحصون اقامها وزين القسطنطينية بمصانع ومشاهد وحتى لايحصي الاعقاب ماقام به من جلائل الاعمال كتب بعضهم كل ماانشأه فكان ماابتناه على شاطئ الدانوب ٨٠ قلعة وفي ولايات اوربا ٦٠٠ وانشأ السد الذي يحول الخليج الذي قامت عليه مدينة القسطنطينية وعنها

من الحصون على طول الفرات . واهم هذه المصانع الكنيسة الكاتدرائية في القسطنطينية المعروفة بايا صوفيا اجمل اعمال الهندسة البيزنطية (وهي باقية الى اليوم جعلها العثمانيون جامعاً)

وقد عهد يوستنيانوس الى الفقيه تريبونين ان يجمع في مجموعتين جميع الشرائع والقوانين الفقهية فوفق يوستنيانوس بفتوحه ومصانعه وقوانينه على ما يجب الى ان ينال شهرة ما زالت متألقة الى اليوم ولن ينسى عهده . وكانت ايام حكمه تعيسة تزوج امرأة وضيعة اسمها تيودورا كانت تدير امره حسب رغبتها وهام جداً بالعاب الفروسية وبالشعر حتى نسي الحكم فثار الزرق *Les Bleus* ونهبوا عاصمته خمسة ايام واوشكوا يذبحونه فاضطهد اعداءه ابشع اضطهاد واغلق مدرسة الفلسفة في آثينا واشتط على الشعب في تقاضي الضرائب وغضب على قائده بليزير الذي فتح باسمه كل هذه الفتوح

الاعمال التشريعية — اذا كان الاباطرة لم تبذل لهم الطاعة الا في البلاد التي كان يتكلم فيها باللغة اليونانية فقد ظلوا يكتبون عقودهم الرسمية باللاتينية وبقيت محاكم الامبراطورية تحكم بالقانون الروماني ولكن لم يبق في الامبراطورية منذ القرن الثالث فقهاء قادرون ان يكملوا الحقوق كأن يضيفوا الزيادة عليها فكانوا يكتفون بتكرار تعاليم فقهاء القرن الثاني والقرن الثالث كايوس واولبين وبول وبابنين ومودستين . وقرر الاباطرة ايضاً ان يجري عمل القضاة في المستقبل في كل المسائل التي لم يسبق للقانون أن قدر وقوعها فيتبع رأي هؤلاء الفقهاء العظام واذا كان بينهم خلاف يجري على رأي الاكثرية وظلوا ينشرون الاوامر ويبعثون الى حكام الولايات اجوبة على مسائل في الحقوق تكون بمثابة قانون ولها قوته واحكامه . وقد الفوا في القرن الخامس مجموعة من هذه الاوامر الامبراطورية سموها القانون التيودوزي .

وصحت عزيمة يوستنيانوس على ان يجمع القانون الروماني برمته فعهد الى تريبونين ان يقتطف من اقوال جميع فقهاء الرومان ومن اعمال الاباطرة ما يتألف منه هذا العمل الذي عنيت به لجنة من الفقهاء اشتغلت نحو عشرين سنة فألفوا ثلاثة تآليف وهي (١) مجموعة الفتاوي (بندكيت) مستخرجة من اقوال زهاء خمسمائة فقيه روماني من عصور مختلفة وتقسم الى خمسين كتاباً (٢) قانون يوستنيانوس وهو مجموع الاوامر والتقاليد الصادرة عن الاباطرة منذ عهد قسطنطين (٣) كتاب الاحكام وهو سفر في الحقوق ألف للطلبة

ثم ان يوستنيانوس جمع في كتاب سماه السنن جملة الاوامر الصادرة في عصره وحظر ان يذكر اسم احد من فقهاء الرومان بعد ذلك وبهذا بطل استعمال الكتب القديمة في الفقه الروماني في المحاكم فضاعت الا قليلا ونحن اليوم قلما نعرف شيئا في الحقوق الرومانية الا ما كان من قطع حفظت في مجلة يوستنيانوس ومن اجل هذا طارت شهرة هذه المصنفات

القياصرة والشعب — اصبحت المملكة البيزنطية مع الزمن اشبه بحكومة مطلقة شرقية والامبراطور سيدها يأمر بقتل كل من ينالهم غضبه ويصادر الاموال كما يشاء هواه وله السلطة الدينية ينصب الاساقفة ويعزلهم ويحكم في المعتقدات ويضطهد المخالفين . ويحف به كبار الضباط والموظفون والخدم فيتألف منهم بلاط ذو ابهة ويكون لكل من الداخلين فيه رتبة شرف ويقدر كل شيء برسوم دقيقة والقصر يستغرق جميع الاموال التي تجبى من البلاد ولا يذكر في الامبراطورية غير الامبراطور وتنقضي الحياة في القصر في معالجة دسائس النساء وبطانة الامبراطور وفي المؤآمرات . فمن ١٠٩ امبراطرة تعاقبوا الحكم منذ القرن الرابع الى القرن الخامس عشر ٣٤ فقط ماتوا حتف انوفهم على سررهم و ١٢ تنازلوا عن الملك و ١٨ ماتوا في السجن و ٨ جدعت انوفهم وقطعت ايديهم و ٢٠ خنقوا او سموا . وندر ان يخلف الامبراطور ابنه وكل انسان حتى الخادم والصيف تحدثه نفسه بالوصول الى العرش فقد كان الامبراطور انستازا رئيس حجاب وجوستين رعى الخنازير ولوكاس جنديا بالعرض وكثيرا ما كان يحدث لبعض المتشردين ان تنبأ له بعض العجائز فتصح عزائمهم على تدبير المؤآمرات ليصبحوا اباطرة . ويروى ان باردانوس بينما كان فتى وشك الانتقاض دله احد الكهنة على خدمته الثلاثة الذين كانوا يأتونه بفرسه قائلا له ان هذين الاثنين يليان الملك وهذا يبايع ثم يقتل . وهؤلاء الخدم الثلاثة كانوا ليون الخامس وميشل الثاني وتوماس الغاصب ولما كان سلاح الامبراطور في الدفاع عن نفسه التجسس والتعذيب الاليم فقد قطع فوكاس (٦٠٣ — ٦٨٠) السنة انصار منافسه وفقأ عيونهم وقطع ايديهم وارجلهم وكان الامبراطور يضربهم بالسهام او يحرقهم بالنار وكثيرا ما كانت تجري هذه العقوبات الشديدة على رؤوس الاشهاد . وقد شهد الامبراطور يوستنيانوس الثاني وهو مجدوع الانف مشهد الالعاب ورجلاه على رأس منافسيه في العرش ثم امر بهما فاعدما . ووضع باسيل اعداءه المجذومين المهزومين في الساحة العامة قابضا بيده مجمرة فيها كبريت كان

يجر بها بعضهم بعضاً ثم اضطرهم ثلاثة ايام ان يحتذوا وعيونهم مفقوءة ويد كل منهم مقطوعة .

الجيش — لم تزل في الولايات سلطة غير سلطة الجيوش يجندون من المتشردين من اهل كل الولايات يدربها عليهم الامبراطور وفيهم الاروام والفرس والعرب والارمن والصقالبة بل والبلغار والروس مأجورون وكان معظمهم فرساناً لا يؤدون الضرائب ويملكون اراضي وقد دعاهم الصليبيون الفرنسويون في القرن الثالث عشر الفرسان والشرفاء وبطلت طريقة الحكام المدنيين في الولايات وسط الحروب فكان قائد جيش يحكم كل منطقة ولايته وبعضهم ينقطعون عن كل صلة مع العاصمة فيدفعون عن انفسهم بحسب ما يتراءى لهم فكانت مناطق كالارا وصقلية مثلاً مستقلة حقيقة

المجاميع — حفظت القسطنطينية خزائن كتب مملوءة بنفائس قديمة وكانت فيها مدارس يتخرج فيها كل من يطمعون في تولي المناصب ويقضى على الموظفين في الدولة البيزنطية ان يكونوا ادباء كما هو شأن حكام الصين ويدرس الاساتذة من الكهنة الا قليلاً علوم الدين والشريعة والرياضيات والنحو وكان بعضهم ملماً بجميع علوم عصره . ولم يكن ادباء بيزنطية يحاولون ان يأتوا باعمال مبتكرة بل كانوا يتسقطون على التآليف القديمة فيقتبسون منها ويجمعونه في مصنفاتهم . فقد ألف فوتيوس في القرن التاسع كتاباً سماه « عشرة آلاف مصنف » ووضع سيمون المترجم وهو قائد سياسي من اهل القرن العاشر مجموعة عامة في حياة القديسين وجمع الامبراطور قسطنطين البورفيروجنتي مجموعاً عاماً . وكان البيزنطيون يرجون ان يضموا في بضعة مصنفات شتات عامة علوم القدماء وهو عمل متكبرين لا عمل عاملين ولكن عملهم حفظ شذوراً من اسفار ضائعة قديمة

الصنائع البيزنطية — ملأت الامبراطورية البيزنطية خلال القرون الوسطى باسرها تشيد كنائس وقصوراً وتزينها فكان المتفننون بالصناعات كثيراً عددهم ولا سيما في بلاط بيزنطية وفي الاديار بين الكهنة والقسيسين . واعظم الصناعات البيزنطية الهندسة واهم مصانعها كنيسة اياصوفيا في القسطنطينية أنشئت في عهد يوستنيانوس وحافظ عليها العثمانيون حولوها جامعاً

وتتألف الكنيسة البيزنطية من قبة كبيرة وسطى فيها قباب صغرى يدخل منها النور ويحيط بالقبة الكبرى عدة قباب او نصف قباب صغرى وجميع هذه القباب مذهبة

من الخارج وتتألق انوارها الى بعيد وفي الداخل ترى السواري من الرخام الثمين كاليشب والسماقي وكلها ذات خطوط حمر وخضر وارضها مبلطة بالفسيفساء المتألقة والحوائط مزدانة بصور مرصعة بالذهب . يريدون من هذا التفنن اظهار الغنى . وغدت هذه الكنائس ذات القباب المستديرة والمذهبة انموذجاً للمهندسين منذ القرن السادس الى القرن الحادي عشر لا في الامبراطورية البيزنطية فقط بل عند جميع البرابرة المسيحيين في الشرق . و بقيت هذه اليوم في المشرق مثال الهندسة النصرانية وجماع الكنائس الروسية كنائس بيزنطية .

وما النقش والتصوير عَلَى ما كان قديماً في مصر واشور سوى صناعات ثانوية من شأنها تزيين اعمال الهندسة وتمثل صور الجدران صفوفاً طويلة من القديسين او احتفالات كهنوتية والاشخاص منفصلة عن التذهيب فيها جفاء وهي عَلَى نسق واحد وعيونها واسعة الاحداق واجسامها مقرنة لامعنى لها ولا حياة فيها وكذلك تماثيل القديسين ينتقد عليها ما ينتقد عَلَى صور الاشخاص وقد انقطع ارباب الصنائع عن صنع النقوش والتصوير الطبيعية واكتفوا بنقل نموذجات مقررة مبتعدين عن الحقيقة كما كثر النقل والاحتذاء .

حفظت في المملكة البيزنطية ايضاً جميع اعمال الزينة كالنقش عَلَى الخشب او العاج وصناعة الحلي والزمرد وتذهيب المخطوطات . ودام ارباب الصناعة من البيزنطيين مدة خمسة قرون من القرن السادس الى القرن الحادي عشر مستأثرين بصنع ما يحتاجه الملوك والاساقفة ورؤساء الاديار من البربر في غاليا وجرمانيا يعملون لهم زين البيع وبيوت الذخائر والكؤوس والعروش والتيجان والمخطوطات الثمينة وكان اذا تخرج اناس في الصناعة ببلاد الغرب يبدأون باحتذاء مثال الكنائس البيزنطية

كنيسة الشرق — لم تشأ الكنائس النصرانية في الشرق ان تخضع للبابا في رومية بل كانت ترجع الى اساقفة المدن الكبرى (القسطنطينية والقدس وانطاكية والاسكندرية) يدعونهم بطاركة وفوقهم الامبراطور رئيس الكنيسة وهو ملك عَلَى الاجسام كما هو ملك عَلَى الارواح عَلَى نحو ما هو حال قيصر روسيا الى اليوم بل هو المرجع في حسم المسائل الاعتقادية

وقد اصدر زينون سنة ٤٨٢ في الجدال الذي ثار بشأن مسألة طبيعتي المسيح امراً قاضياً عَلَى الفريقين ان يقبلا بقانون عام وبعد مئة وخمسين سنة من هذا التاريخ والمسيحيون

في الشرق فقالوا إذا كانت للمسيح طبيعة واحدة أو طبيعتان أصدر هراكليوس سنة ٦٣٩ أمراً يقضي بأن للمسيح طبيعتين ولكن له إرادة واحدة فنشأت من ذلك بدعة جديدة وانقسمت كنيسة الشرق إلى ثلاث شيع فكان النساطرة يقولون بأن في المسيح طبيعتين الأولى إلهية والثانية بشرية وأن العذراء ليست أم الإله بل أم المسيح وأسسوا الكنيسة الكلدانية [illegible] في بابل . وقال القائلون بطبيعة واحدة في المسيح إن ليس فيه من الطبائع إلا الطبيعة الإلهية وهؤلاء أسسوا كنائس مصر والحبشة وسورية (تحت اسم اليعاقبة) والقائلون بمشيئة واحدة في المسيح اعتقدوا بأن له طبيعتين وإرادة واحدة ولا يزال الموارنة في جبال لبنان يعتقدون المعتقد

ثم عظمت الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية بمصر وآسيا الصغرى وأوربا ولم يتيسر لها أن تظل مرتبطة بكنيسة الغرب والكنائس مختلفة في عدة مسائل فالغربيون لم يقبلوا زواج القسس ولا عبادة الصور وزادوا إلى هذه الجملة التي قيلت في مجمع نيقية «الروح القدس منبثق من الآب» قولهم «ومن الابن» ولم يرض أحد الفريقين أن يتنازل عن دعواه وقد رحل الإمبراطور عن رومية كان يعترف البابا والسلطة الإيطالية بالإمبراطور القسطنطيني عاملاً عليهم ولكن لم يرضوا بأن تحكم الإمبراطورية في الكنيسة وأن تقضي مسائل الإيمان والقوانين . فأصبحت الصلات نادرة ومتقطعة بين البابا والمشارقة ثم جاء إمبراطور من القائلين بتحطيم الصور فأمر سنة ٧٢٦ بأن لا يكون في البيع أثر لتمثال من تماثيل المسيح ولا العذراء ولا القديسين وأن تحطم التماثيل وعلى أثر ذلك حرض البابا جماعة المؤمنين الرهبان على هذا الفكر وشجب القائلين بتحطيم الصور ولما اعتمد لاون الأرمني (٨١٣-٨٢٠) إمبراطوراً للحزب انقطعت كل صلة بين رومية والشرقيين

ولم تبق الكنيسة الرومية محصورة في الإمبراطورية البيزنطية بل بعثت برسلها لتنصير البربر الصقالبة في أوربا الشرقية كما نصر مرسلو رومية برابرة الجرمان وسط أوربا الغربية فكما غدا الجرمان في ألمانيا وإنكلترا كاثوليكاً رومانيين أصبح السلافيون (الصقالبة) في روسيا وبلغاريا كاثوليكاً روميين وما زال هؤلاء كذلك وتسمى الكنيسة الرومية (وهي التي تلقب بالأرثوذكسية) ويعد التابعون لها نحو ٨٠ الى ٩٠ مليوناً .

نكبة الإمبراطورية البيزنطية — جرت عادة المؤرخين عند كلامهم على البيزنطيين

ان يطلقوا عليهم عبارات الاحتقار . نعم ان روايات مؤرخيهم تشعر بان هناك شعباً خاملاً نذلاً فاسداً ولكن لم يبق غيرهم باقين على شيء من مدنية بجانب الغرب الذي عاد فاصبح بربرياً فهم الذين حفظوا الحضارة القديمة ونقلوها الى امم اوربا الحديثة و بذلك شغلوا مكانة عالية في تاريخ العالم المتمدن واليك ماأتوه من الاعمال على سبيل الايجاز :

١ً حفظوا من التشذيب القوانين الرومانية التي لاتزال في كثير من الموضوعات القاعدة التي تجري عليها الشعوب المتمدنة

٢ً انقذوا صناعات يونان القديمة وكانت تضيع آثار كتاب اليونان لولا المخطوطات التي حفظها أدباء القسطنطينية وكهنتها فالبيزنطيون كانوا خزنة كتب الجنس البشري .

٣ً انشأوا صورة عظمى من صور الصناعة وعلى الاقل في الهندسة وهي بذلك الصناعة البيزنطية

٤ً أسسوا كنيسة نصرانية نصرت العالم السلافي تقريباً

٥ً قدمت الشعوب البربرية في اوربا الشرقية مثالاً من امثلة المدنية ولا سيما الروس فانهم طالما اعجبوا ببيزنطية وأخذوا مثالها وما البيع الروسية الا كنائس بيزنطية والفباء اللغة الروسية مؤلفة من حروف يونانية والدين الروسي هو الكثلكة الرومية حتى ان اسماء العباد يونانية (اسكندر . ميخائيل . باسيل . حنة) واخذ الشعب الرومي (وهو اليوم يناهز الثلاثة ملايين نفس) دع عنك الصربيين والبلغاريين عن بيزنطية كتابته وديانته وصنائعه . وعلى الجملة فقد كان البيزنطيون معلمي الصقالبة كما كان الرومان معلمي الجرمان .

مملكة العرب

الخلافة

الخلفاء — فتح الفاتحون العرب في اقل من قرن (٦٣٠ — ٧١٣) بلاد آسيا حتى بلغوا نهر السند وجميع افريقية الشمالية واسبانيا وخضعت البلاد التي فتحت للخليفة زعيمهم امير المؤمنين خليفة الرسول وقام الخليفة اولاً في المدينة المنورة مدينة الرسول (٦٣٠ — ٦٦٠) ثم في دمشق (٦٦٠ — ٧٥٠) ثم في بغداد على عهد العباسيين وعند ذلك تجزأت المملكة فصار الخلفاء ثلاثة في ثلاث عواصم : بغداد في آسيا والقاهرة

في افريقية وقرطبة في اسبانيا دع عنك الولايات المتقطعة (مثل خراسان ومراكش) التي لم تكن تخضع لخليفة قط .

والقاعدة ان ينتخب المؤمنون الخليفة بأمر من الله . قال يزيد الناقص عندما بويع له : ايها الناس اني اعاهدكم ان لا اقيم قصراً ولا اجمع من حطام الدنيا فاذا قمت بوعدي فعليكم ان تبذلوا لي طاعتكم وتدافعوا عني بأنفسكم والا فانتم في حل من بيعتي ولكن عليكم ان تذكروني اولاً فاذا صلحت فاقبلوا معاذيري واذا عرفتم برجل تعرفه الخلافة يقوم لكم مثل قومي فاختاروه وانا اخضع له . وفي الواقع فان انتخاب الخليفة كان حراً خاصاً فتختار الامة الخلف الذي يعينه الخليفة السابق او رؤساء القواد حيث تحضر الخليفة .

الحكومة — كانت الحكومة ساذجة للغاية . متوارثة خلفاً عن سلف وكان الخليفة كل جمعة ان يصعد المنبر ويخطب الناس ويعظهم ثم تركت هذه العادة وكان عليه ان يستقبل القوم جالساً على عرش يحجبه دون قرباه والناظر دونه . ولكن الخليفة اعتاد ان يجعل له وزيراً يكون خادماً دون برأول يسليه بحديثه ويخلفه ويلاعبه بالنرد وينوب عنه في الملك . وهو ايضاً يقضي وقته في قصوره او حدائقه بين نسائه يحف به حرس من الجند المأجور من الاجانب (ويدعونهم الحرس لانهم لا يتكلمون العربية)

وكان لكل ولاية قائد لجيشها يحكمها وكثيراً ما ينتصر الخليفة وفي كل حاضرة قاض يقضي بين المسلمين في امر يدعيه بدون كتابة ولا مماطلة وذلك بمراعاة احكام القرآن والعدل . ويقال عدل قاض يريدون به العدل الوجيز . وكانت العرب كالرومان يتركون الشعوب الخاضعة لهم تتمتع بحقوقهم ومحاكمهم في اسقفيتهم (وكان في خلافة بغداد وحدها ٢٠ اسقفاً مطراناً) ويتركون المسيحيين يقومون كما يشاؤون بشعائرهم الدينية مكتفين منهم بتأدية الجزية فقط وان يحترموا المسلمين وان لا يحملوا السيف ولا يشربوا الخمر ولا يقرعوا نواقيسهم كثيراً ولا يعلون ابتهالهم بصوت جهوري .

المذاهب — ما كان بين الشعوب المختلفة التي دانت بالاسلام كثير من الاختلاف في الاخلاق لا يتأتى معه ان يقوموا بواجباتهم على مثال واحد انقسموا الى عدة مذاهب فقسماء المؤمنين في العادة ولا سيما العرب منهم يؤمنون مع القرآن باحاديث الرسول وما أثر عن اصحابه وآله فيميزون الكتاب بالسنة ومن ثم اشتق اسمهم اهل السنة . الآخر ان هذه الاحاديث التي تلت مسائل صرعة التصديق المعهودة في الشرقيين

لا يرد عهدها الى محمد (فقد اقر احد الوضاعين الذي قتل سنة ٧٧٢ بانه وضع ٤٠٠٠ حديث) ولكنها مع ذلك من اصل عربي . اما المذهب المناقض لهذا فقد تألف بعد مقتل علي فأبى اهله الاعتراف بخلفاء الأمويين في سورية ونبذوا الحديث وزعموا انهم يتمسكون بالقرآن فدعا العربيون في الابان هؤلاء المخالفين شيعة او رافضة وكان معظمهم قد اسلموا حديثاً واكثرهم من الفرس فمزجوا الاسلام ببقايا دين زردشت القديم وادخلوا فيه حكايات واحتفالات ومعتقدات تكرهها العرب وجعل اكثرهم استنارة بكثرة تفسير القرآن لفظة مجازية من الدين مثل صوفية الفرس حتى لقد شبهوا هؤلاء بالاباحيين وكان من امر السواد الاعظم كرهاً بالأمويين ان اتخذ من الخلاف على حق الرسول آل بيت النبي وقالوا ان الخليفة غاصب والزعيم الحقيقي هو الامام من آل بيت علي وفيه السر الالهي وهكذا جاء اثنا عشر اماماً عاشوا خاملين في المدينة ثم انقرض آل البيت فكانوا يتوقعون زمناً خروج الثاني عشر وهو محمد من مغارة بالقرب من بغداد حيث كان مختبئاً على مايقولون ومنذ ذلك العهد اخذوا ينتظرون اماماً يأتي ذات يوم لمقاومة الشر بمعونة عيسى ويلقي السلام على الارض وفي كل مساء يضرعون اليه ان يظهر قائلين عجل لنا يا الامام فان الانسانية في انتظارك لان الحق والعدل هلكا والارض ملئت جوراً وظلماً . وهذا المسيح يسمونه المهدي (اي الرجل الذي يهديه الله) وقد ظهر كثير من المهديين منذ القرن العاشر ولا سيما بين مسلمي افريقية وانشأ احدهم خلافة في القاهرة واسس آخر دولة الموحدين في مراكش وقام حديثاً مهدي جديد آخر في السودان (١٨٨٤)

المدنية العربية

منشأ المدنية العربية — كان الاسلام كالنصرانية مباحاً الدخول فيه لكل انسان اذا اسلم المغلوب يدخل في زمرة المؤمنين وكانت العرب الخلص في الصدر الاول التي تدعو انفسها السود تحتقر هؤلاء الداخلين في الاسلام المدعوين بالحمر السبال ولكن الخلفاء وضعوا مبدأ المساواة قال عمر من الظلم ان يحتقر المرء اخاه المسلم . وقد اخذ الروم والفرس ممن دخلوا في الاسلام او ظلوا على دينهم وهم اعرق في المدنية يتكلمون بالعربية ومزجوا عاداتهم بعادات الفاتحين فخرج العرب متوحشين من قفارهم فتحضروا كما كان شأن الرومان قديماً وراحوا يمدنون الشعوب البربر التي ما زالت على توحشها في افريقية كما مدنت رومية بربر اسبانيا وغاليا

بغداد وقرطبة — هذه المدنية العربية التي نشأت في الشام وفارس هي شرقية

محفة فقد اتخذ الخلفاء ومثل ملوك فارس فكانوا يأوون الى القصور المبلطة بالرخام الاخضر وفي وسط الفناء حوض عظيم يفيض الى حديقة غاصة بالاطيار وحوله عبيده يغنون فيشرب شراباً بماء الورد وكانت العاصمتان اللتان اسسهما الخلفاء وهما بغداد وقرطبة احسن حالة فان بغداد مدينة العجائب أنشئت في بضع سنين وكان لها اربعة ابواب من حديد تحيط بها قبة مذهبة وكان على الداخل للوصول الى القصر ان يجتاز ثلاثة ميادين وثلاثة ابواب وكان القصر مدينة مغلقة وسط المدينة . وفي ردهة الاستقبال شجرة ذهب اغصانها الاحجار الثمينة واسود مقيدة واحواض مياه معجبة ترطب الهواء وكان لخلفاء القاهرة حديقة اشجارها من ذهب وازهارها من الجوهر وبلاطها من الزمرد . قالوا انه كان في قرطبة في القرن العاشر مئة الف دار وستمائة جامع وثمانون مدرسة وثلثمائة حمام وثمانية وعشرون ربضاً . وقد سمت الراهبة هروسويتا الالمانية مدينة قرطبة بجوهرة العالم وكان الخليفة في قرطبة كما في بغداد يستدعي الشعراء والمغنين ويردهم مملوءة حقائبهم من الذهب . ولاغنياء التجار ايضاً حدائق مملوءة بالزهور والاشجار العطرة والبسط الفاخرة واقمشة الحرير وآنية الفضة وضروب بلاد العرب التي يحرقونها في مجامر ذهب . وهكذا بذخ الشرقي يرغب في الثمين الفاخر اكثر من رغبته في الموافق السهل .

الزراعة — من اول واجبات الحكومة ان تفتح الترع اللازمة لزراعة الارض . وهذه كانت قاعدة امراء العرب التي جروا عليها وحفروا الآبار وحفزوا من عثروا على الينابيع بالمال ووضعوا المصطلحات لتوزيع الماء بين الجيران لان مصر والشام وبابل وهي من البلاد الحارة التي تخصب واي خصب عندما يسقونها قد علمت العرب قيمة الماء وطريقة الانتفاع منه فنقلوا الى اسبانيا ضروب النواعير التي تمنح الماء والسواقي التي توزعه . وان الهورتا في ضواحي بلنسية وهو سهل مزروع كما تزرع الحديقة هو بقيا حكومة العرب وديوان المياه الذي كان يفض مسائل السقيا نظمه العرب

وقد استعمل العرب جميع انواع الزراعة التي وجدوها في ممالكهم وحملت كثيراً من النباتات الى صقلية واسبانيا ومنها الى اوربا فاحسنوا تربيتها حتى تطبعت وطنية وذلك مثل الارز والزعفران والقنب والمشمش والبرتقال والكباد والحمل والليمون والبطيخ الاصفر والعنب المطر والورد الازرق والاصفر والياسمين بل والقطن والقصب وقد دخل هذان الصنفان منذ اكتشاف اميركا

الصناعة — وجدت العرب في الشام وفارس صناعات قديمة نقلت الى جميع البلاد الاسلامية فتكملت ومنها نشأت صناعة اوربا الحديثة . وكانوا يعملون في معامل الزجاج في بغداد والشام زجاجاً معمولاً بالياقوت والصدف ويخرج من معامل الاسلحة العربية الفولاذ العجمي والمنتجات الحديدية في البصرة والسيوف في اليمن ثم أخذت سورية تصنع النصال الدمشقية المشهورة واسبانيا السيوف المسقية في طليطلة . ويحوكون في جبال آسيا الصغرى السجاد من صوف ذي وبر . وفي دمشق قماش الدمسكو واقمشة القصب واقمشة الحرير والصوف الدقيقة ويصنع الشاش في الموصل . وقد انتقلت الرسوم العجمية التي كانت تزدان بها هذه الاقمشة من طيور وفيلة واسود وحيوانات ونباتات يخلطونها (ويرد عهد بعضها الى الاشوريين) الى تزييناتنا الحديثة وكان عمل الورق في سمرقند وبغداد منذ القرن العاشر وربما قلدوا في صنعه الصينيين ومن هاتين العاصمتين انتقلت صناعة الورق الى صقلية وكسانتيفا (؟) Xativa في اسبانيا . وكانت في العرب معامل الجلد الشهيرة وهي مثل الجلد القرطبي (الكوردواني) نسبة لقرطبة (ومن هنا اشتق بالافرنجية اسم كوردونية اي صانع الاحذية) كما يصنع السختيان (المراكين) نسبة لمراكش . ويعمل في بغداد السكر الذي كان اخترع في بلاد الفرس وكانت العرب تحسن عمل المربيات والاشربة والخمور الناشفة وروح الورد

التجارة — عاش الشعوب في بلاد العرب الواسعة كما كانت الحال على عهد الرومان من اقصى المملكة الى اقصاها بسلام وراحة يتقايضون حاصلات ارضهم ومصنوعات معاملهم ويرحلون الى الهند والصين يبتاعون مصنوعات الامم الصناعية يحملونها الى الشعوب الغربية في اوربا وكانت البضائع تنقل في البحار على مراكب وفي البر على ظهور الجمال وللعرب مرفآن تجاريان عظيمان متصلان بالعاصمتين احدهما البصرة على خليج فارس كان يفتح للعرب بحر الهند وهناك تفرغ مراكب العرب وهي قادمة من الهند تحمل العطور والافاوية والعاج وتجيء الجنوك الصينية تحمل جميع صنوف المسك والحرير والعود والزجاج والسكر وماء الورد والقطن . والاسكندرية هي المرفأ الثاني فتحت على العرب طريق البحر الرومي واليه كانت تصل مراكب ايطاليا . فالبصرة مرفأ بغداد والاسكندرية مرفأ القاهرة

وتسير القوافل من بغداد الى كل ناحية فمن الجنوب الغربي تقصد الى دمشق وسورية والى الشرق نحو البصرة والهند ومن الشمال الى طربزون على البحر الاسود

حيث كانت تتصل بأسواق المملكة البيزنطية والى الشمال الشرقي الى سمرقند وبحر الخزر حيث كان يذهب التجار ليأخذوا جلود روسيا وشمعها وعبيدها . وكانت القوافل من القاهرة تسير الى الغرب في الطريق العظيم الذي يحاذي البحر على طوله ماراً بطرابلس والقيروان ليبلغ طنجة التي كانت تصل اليها تجارة اسبانيا ومن الجنوب طريق يصعد منها الى النيل حتى بلاد السودان وآخر يسير في الشاطىء الشرقي من افريقية حيث انشأت العرب مقدشو وكلوة وسفالة . ومن هذه الجهة كان يجيء التبر والعاج والعبيد . وكان في جميع المدن العظمى كبغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وطنجة وقرطبة وسمرقند حي للتجارة (البازار) يعرض فيه التجار امتعتهم ويتفقون على الاسعار

العلوم — يقول المثل العربي من سار في طلب العلم سهل الله له طريق الجنة وكثير في الرحال من ساحوا شهوراً في طلب حديث روي عن الرسول وبالحقيقة ان المسلم يعنى عناية خاصة بعلم الكتاب وفي البلاد الاسلامية كما في البلاد المسيحية يفضلون تعلم الفقه . فقد كان الطالب في مدارس قرطبة يقضي اربع سنين في تعلم قراءة القرآن وثماني سنين في حفظه ثم يتعلمون الكتابة وهكذا كان يتخرج العلماء وهم علماء في الفقه والكلام اذ ليس القرآن قانوناً دينياً فقط بل هو قانون مدني . ومن دراسة تراكيب القرآن نشأ علم النحو وما برح المسلمون يؤثرون من العلوم الكلام والفقه والنحو وكان في الحواضر مدارس يجتمع اليها من يرغبون في التعلم او التعليم وهؤلاء الاساتذة المرتجلون كانوا يلقون دروسهم عفواً بدون مقابل او لقاء رواتب يدفعها اليهم الحضور . وأُنشئت في القرن العاشر في بغداد ودمشق وسمرقند مدارس كلية حقيقية تدفع الحكومة رواتبهم

وحفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم واكملوها وشرحوها (١) ولقد كتب احد علماء العرب اول كتاب في الجبر ترجم الى اللاتينية ووصف جغرافيو العرب البلاد البعيدة التي كانت القوافل تختلف اليها .

---

(١) الآن وقد اخذ العلماء اليوم يعرفون ما كان من علم في الامبراطورية البيزنطية فقد ادركوا بانه يجب ان يحذف كثير من الاختراعات التي نسبت للعرب كما بان ذلك مؤخراً المسيو برتلو في علم الكيمياء (كتاب اصول الكيمياء)

واستخرجت العرب من كتب الطب اليوناني الطب العربي الذي كان المعول عليه في القرون الوسطى وهو طب العقاقير والحبوب وكانوا كاليونان يبحثون عن دواء يشفي من كل الاوصاب ولكن اهم ما طلب لدى العرب من التقدم علم الكيمياء وكان يجذبهم اليهم امران مرغبان لاهل الشرق وهما العثور على حجر الفلاسفة الذي يحول جميع المعادن الى ذهب والاكسير الذي يعطي الحياة ويعيد الشباب وكانوا يحاولون استخراجها بمزج كل مادة واغلائها وتقطيرها فوقع الكيماويون في ايديهم وادوات استخراجهم ما لم يكونوا يبحثون عنه فبدلاً من الاكسير حصل معهم الالكحول (١٦٦٩) ثم بعد زمن بينما كانوا يبحثون عن حجر الفلاسفة وجدوا في المانيا الفوسفور . وظلت الكيمياء وهماً ولكن نشأت منها الكيمياء الحديثة كما نشأ قديماً من بلاد الكلدان علم الفلك من علم التنجيم .

فنون العرب — لم يكن للعرب كالرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن لم تلبث الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجل هذه الصناعات (١) الجوامع والقصور والجامع عبارة عن قاعة كبرى يجتمع فيها المؤمنون وفي الفناء حوض ماء يتوضأون منه ومأذنة تنتهي بسطح ومنه ينادي المؤذن المؤمنين للصلاة . وكانت القاعة العظمى في قرطبة تنقسم الى احد عشر صفاً من السواري والقصر العربي هو بيت نزهة يكون بحسب عادة البلاد الحارة ولا يبدو منه من الخارج الا حوائط عارية . والقاعات كما في الدور القديمة متجهة نحو فناء (صحن) داخلي مغروس بالاشجار ويرطب هواءه حوض ماء وفي صحن الاسود في قصر الحمراء في غرناطة ينبجس الماء من كأس عظيمة من الرخام الابيض يحملها اثنا عشر اسداً من الرخام الاسود والفناء يحيط به من الشواطئ سوار يتألف منها رواق والسواري العربية رقيقة عالية على مثال الهندسة الفارسية فلا تحمل الا حوائط رقيقة خفيفة من الجبس او الملاط والمناظر التي تجمع بين السواري هي على شكل رسم

---

(١) تكاد تكون المعاهد العربية بأسرها معمولة من القرميد والخشب والملاط انهدمت او هدمت . ولم يبق منها الآن الا جامع مصر والجامع الاعظم في قرطبة من القرن الثامن البرج المربع La Giralda في اشبيلية وجنة العريف La Généralife والحمراء في غرناطة من القرن الثالث عشر .

البيكارين وهلال او قرن فهي هندسة خفيفة جميلة مريحة للنظر كأنها اصحاب كتاب بالمعنى . وليس للعرب نقش ولا تصوير لان القرآن حرم عليهم تمثيل الاشخاص فبدلا من التماثيل والصور تصوروا ان يصوروا الحوائط بألوان زاهية واكاليل من الزهر والورق وآيات من القرآن والاشكال هندسية مشتبكة وهذه الزين التي اصبحت على الدهر مختلطة مرتبكة لا اصل لها الا في خيال راسميها قد حفظت اسماء مخترعيها فقالوا عنها ارابسك اي النقوش على هيئة النباتات والاوراق

* * *

مخطوطات ومطبوعات

المجموع المشتمل على الدرر

كما قيض الله سبحانه رجالا في الهند انتشر بهم مذهب السلف بطبع كتب الحديث وسننه ومسانيده واجزائه وكتب عقيدتهم الصحيحة كذلك اتاح لذلك رجالاً من البحرين ومصر وجدة لا يألون جهداً في السعي وراء احياء آثار السلف ومنها من مراقد الاهمال الذي قضى عليها ضعف العلم في العصور الاخيرة

ومنهم الشيخ عبد القادر التلمساني الاصل نزيل مصر فقد طبع في مصر الصارم المنكي ، والكافية الشافية ، وكتاب الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، وجزء رفع اليدين ، وجزء القراءة خلف الامام ، وغاية الاماني وآخر ما نشره مجموعة كتب من الطف الكتب وانفسها يود كل مسلم بالعلم ان يقف عليها ويتمتع بفوائدها

اشتمل هذا المجموع — الذي طبع في مطبعة كردستان باجمل ورق والطف حرف — على تسعة مؤلفات (الاول) كتاب الرد الوافر على من زعم ان من سمى ابن تيمية شيخ الاسلام كافر للامام حافظ الشام ناصر السنة محمد بن ابي بكر المعروف بابن ناصر الدين الشافعي المتوفى عام (٨٤٢) جاء كتابه هذا في (١٣٦) ص من القطع الكامل افتتح خطبة كتابه بما ورد في اتباع السنة واجتناب البدعة ثم نعى على المكفرين والضالين وان كل هؤلاء ركب هواه ، فابتدع مذاهب وارتضاه ، وناظر اهل الحق عليه ، ودعاهم اليه ، وزخرف لهم القول بالباطل تزين به وصار ذلك عندهم دينا يكفر من خالفه ، ويلعن من باينه ، وساعده على ذلك من لا علم له من الغوغاء ، ويوقع به الفتنة

والايهام ، ووجد على ذلك من الجهال أعوانا ، ومن اعداء العلم احدانا ، اتباع كل ناعق لايرجعون فيه الى دين ، ولا يعتمدون على يقين ، قد رجوا به الرئاسة ، وتزيدوا به العامة ،

وما الطف قوله بعد ذلك عن السالق بالتكفير ، ان هذا القول الشنيع قد ابان قدر قائله في الفهوم ، وافصح عن مبلغه من العلم ، وكشف عن محله من الهوى ، ووصف كيف اتباعه سبيل الهوى ، ولا يرد بعد روايته عنه ونسبته اليه ، «كلام الانسان عنوان عقله» يدل عليه

وقد استقرأ من ترجم شيخ الاسلام ابن تيمية من مشاهير الاعلام ما يقرب من تسعين علما مشهوراً وتذيل الكتاب بتقاريظ اقران المؤلف ومعاصريه كالحافظ شهاب الدين ابن حجر شارح الصحيح وأضرابه

وللمؤلف الامام ابن ناصر الدين شهرة كبيرة لقب بخاتمة حفاظ الشام وكان من اعلام القرن التاسع

(الكتاب الثاني) القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي لصفي الدين البخاري الحنفي ذكر فيه كلام الائمة الاخيار في الثناء على الشيخ ، ثم عقيدة الشيخ السلفية ثم ما وافق كلامه كلام من تقدمه من السلف والخلف ، ثم الجواب عما انكروه على الشيخ ، ثم ما اختاره الحنابلة من تسمية انفسهم اهل الأثر لا اشاعرة ولا ماتريدية وتصويبهم في ذلك ، ثم ذكر وفاة الشيخ وبعض ما قيل في رثائه وهذا الكتاب كان طبع على حاشية المحاكمة بين الاحمدين

(الكتاب الثالث) الكواكب الدرية في مناقب الامام المجتهد شيخ الاسلام ابن تيمية للشيخ مرعي الحنبلي اورد فيه ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية مهذبة ، وسرد وقائعه مع الحاسدين في عصره وتواريخ سعايتهم به الى السلاطين والنواب ، ثم من انتصر للشيخ من علماء البلاد ثم ما رثي به بعد وفاته من القصائد وعدتها خمس عشرة والكتاب من اجل الكتب التي جمعت سيرة الشيخ ومناقبه وقد طبع عن نسخة بخط السيد محمود شكري الآلوسي الحسيني احد علماء العراق .

(الكتاب الرابع) كتاب تنبيه النبيه والغبي في الرد على المدراسي والحلبي لاحمد بن ابراهيم بن عيسى النجدي وكان رأى كتاباً لشخص يلقب بالمدراسي من اهل مدراس استمد ما جمعه مما كتبه الحلبي في رده على شيخ الاسلام ابن تيمية وعلى شمس الدين الحافظ

الذهبي في كتاب العرش وكتاب العلو وحاول تأييد مذهب الجهمية في مذهب السلف وحذا حذو اولئك المؤولين الجامدين فوضع من التأويل والحشو المعروف لهم لكر عليه هذا العالم النجدي ودحر شهادته أجمع ويبلغ مقدار صفحاته قريباً من مائتين وتسعين بالقطع الكامل ويجد فيه مجادل الحشوية في المسائل السلفية مادة كبرى

(الخامس) رسالة في زيارة القبور تأليف الحجة محي الدين البركوي احد اولياء علماء الاتراك الشهيرين وصاحب الطريقة المحمدية وغيرها من المؤلفات ثم رسالته هذه في زيارة القبور وجمع من النقول في ذلك عن السلف والخلف وعن فقهاء المذاهب في آداب الزيارة ومحظوراتها ما لا يوجد في كتاب غيره وهذه الرسالة كانت طبعت في الاستانة مرتين طبعاً محرفاً فطبعت في هذه المجموعة على نسخة مصححة غاية التصحيح وحقها ان تكون أماً يعارض بها كل مطبوع قبلها

(الخامس) عقيدة الشيخ الامام موفق الدين ابن قدامة وهي من انفس المختصرات في بيان عقيدة السلف

(السادس) كتاب ذم التأويل للامام موفق الدين المشار اليه قبل اورد فيه مذهب السلف من الصحابة والتابعين في اسماء الله وصفاته ليسلك سبيلهم من احب الاقتداء بهم

وقد تخلل هذه المجموعة البديعة منظومة الحجاوي الحنبلي في تعداد الكبائر ومنظومة في عقيدة اهل الاثر لابي الخطاب الحنبلي ، وكلها نفائس وغرر ، جديرة ان تطلب ما لقب به بالمجموعة المشتملة على الدرر   دمشق :   (ابو الضياء)

الاعتبار

تأليف مؤيد الدولة ابو المظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري المعروف بابن منقذ طبع بمطبعة بريل في ليدن سنة ١٨٨٤

لمطبعة بريل في ليدن من بلاد القاع (هولاندة) يد طولى على اللغات الشرقية عامة واللغة العربية خاصة فقد طبعت جزءاً كبيراً من كتبنا في مطبعتها ولا تزال الى اليوم تطبع كل ما يبيض وجه الآداب والعلم وآخر ما اطلعنا عليه من مطبوعاتها كتاب نشره هرتويغ درنبورغ احد علماء المشرقيات من الفرنسيس هذا المؤلف الامير وكانت أسرته صاحبة شيزر ولها تاريخ مجيد على عهد دخول الصليبيين الى هذه الديار الشامية فكان في القرن الاول من تلك الحروب وطاف مصر والشام ورأى أهاويل ونص [illegible]

هذا الكتاب — الذي ظفر ناشره بنسخة منه في مكتبة الاسكوريال ببلاد الاندلس — حكايات مهمة في شجاعة اهل تلك الايام وما لاقوا من صروف الاقدار وما كانوا يألفونه من العادات والاحوال بحيث اسدى الناشر الى التاريخ ولاسيما تاريخ مصر والشام يداً محمودة . هذا القسم الثاني منه في ١٦٨ صفحة عدا الفهارس واسماء الرجال والنساء والحيوان والامم والاماكن والقبائل والانساب التي لا يكاد كتاب من كتب علماء المشرقيات يخلو منها .

ذكر ابن منقذ فرقة من العرب الذين رآهم على حدود مصر قال « ورأيت بهم من الضر امراً عظيماً قد يبست جلودهم على عظامهم قلت : ايش انتم قالوا . نحن من بني عُبي . وبنو عبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون الا الميتة ويقولون نحن خير العرب ما فينا مجذوم ولا ابرص ولا زمن ولا اعمى واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم . قلت : ما جاء بكم الى هاهنا قالوا : لنا بحسمى كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها قلت : وكم لكم هنا قالوا : من عيد رمضان ما هاهنا ما رأينا الزاد باعيننا قلت : فمن اين تعيشون قالوا من الرمة يعنون العظام البالية الملقاة ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف شجر بتلك الارض ونتقوت به قلت : فكلابكم وحمركم قالوا الكلاب نطعمهم من عيشنا والحمير تأكل الحشيش قلت : فلم لا دخلتم الى دمشق قالوا : خفنا الوباء ولا وباء اعظم مما كانوا فيه وكان ذلك بعد عيد الاضحى توقفت حتى جاءت الجمال واعطيتهم من الزاد الذي كان معنا وقطعت فوطة كانت على رأسي اعطيتها لمرأتين فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد وقلت لا تقيموا هاهنا يسبوكم الافرنج »

وذكر انه سار مع اخيه من دمشق يقصد هو واصحابه الى عسقلان يريدون الغارة على بيت جبريل وقد لقطها فاجتمع الافرنج من تلك الحصون وقال : وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثير الافرنج لمادة عسقلان ومراوحتها . وذكر من جملة كلامه في مسيره من مصر الى الشام انه وصل جبال بني فهيد في وادي موسى وطلع في طرقات ضيقة وعرة الى ارض فسيحة ورجال وشياطين رجيمة من ظفروا به منفرداً قتلوه وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الامراء الطائيين فسألت من هاهنا من الامراء بني ربيعة قالوا منصور بن غدفل . وذكر انه اخذ اماناً من الافرنج وارسل عياله واشغاله من دمياط الى عكا في بطسة من بطس الافرنج فنهب هؤلاء جميع عياله وكان نحو ثلاثين الف دينار عين وهو يتجلد انه كان من جملة الكتب : « وهون علينا ذهاب ما ذهب من المال

الا ما ذهب لي من الكتب فانها كانت اربعة آلاف مجلدة من الكتب الفاخرة فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت

وقال « فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الاموال والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة الى نكبات سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال واجحفت بهلاك المال وبين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين ما لا أحصيها وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره وما النسيان بمستنكر لمن طال عليه مر الاعوام وهو وراثة بني آدم من ابيهم عليه الصلاة والسلام » .

وذكر مواقع الخيل التي قاتل بها طول حياته وذكر الفرسان منها وانواعها [illegible] وذكر رجلية وكان [illegible] حاصرها [illegible] الذي لها وهو مكان لا يتصرف فيه الخيل من الحجارة والاشجار واصول [illegible] الخراب .

وشهد للافرنج الصليبيين بالشجاعة ووصفهم بالحرب « والافرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ولا عندهم ناس الا الفرسان فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم » وقال [illegible] في مكان آخر « سبحان الخالق البارئ اذا خبر الانسان امور الافرنج سبح الله وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحمل » وقال ان الافرنج قوم تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم ولكنهم شاذ لا يقاس عليه فمن ذلك اني انفذت صاحباً الى انطاكية في شغل وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي وبيني وبينه صداقة وهو نافذ الحكم في انطاكية فقال لصاحبي يوماً انه [illegible] صديق لي من الافرنج تجيء معي حتى ترى زيهم قال فمضيت معه فجئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في اول خروج الافرنج وقد اعتفى من الديوان والخدمة وله بانطاكية ملك يعيش منه فاحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة ورآني متوقفاً عن الاكل فقال كل طيب النفس فانا ما آكل من طعام الافرنج ولي طباخات مصريات ما آكل الا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير فاكلت وانا محترز وانصرفنا .

وذكر قصة له معهم وهو انهم سرقوا افراساً من قطعان المسلمين [illegible]

تشاور الفرسان بامر الملك منهم وحكموا بالغرامة على صاحب بانياس وهو منهم فاخذ منه اربعمائة دينار . ومما ذكره ان الطور كانت ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله رحمه الله اذا اراد ابعاد بعض الامراء ولاه الطور وهو قريب من بلاد الافرنج . ومما رواه ان حصن مصياف كان لابن منقذ عم صاحب كتاب الاعتبار وكانوا يقاتلون الاتراك او الافرنج مما دل على انه كان في البلاد اتراك ولعلهم سكان مرعش وغيرها من الشمال ولاية حلب اليوم .

هذه نموذجات من الكتاب وهو يصور الصليبيين ومبلغ انحطاطهم اذ ذاك في سلم المدنية حتى انه ذكر ان احد رجال الصليبيين دخل الحمام في امرأة فاستعمل لها ما يستعمله الرجال لتنظيف الشعر فاتى من الغد بابنته الشابة يريد الحمامي ان يعمل لها ما عمل له وذكر اموراً من مثل هذه غريبة ووصف قومه وصفاً دل على ان الفروسية هي جماع فضائل المشارقة والمغاربة في القرون الوسطى ولا يمتاز الاولون عن الآخرين الا ببعض العادات الحسنة والمدنية التي تعد شيئاً بالنسبة لتلك الاعصر

ذيل تاريخ دمشق

لابي يعلى حمزة بن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق طبع في بيروت سنة ١٩٠٨

لعلماء المشرقيات فضل كبير على العلم والتاريخ والآداب العربية لاينكره عليهم الا مكابر او جاهل ومما احيوه بالطبع هذا الكتاب احياه الاستاذ اميدروس الانكليزي طبعه في بيروت في مجلد لطيف واخذ الى الغرب جميع نسخه ووقعت له بعض اغلاط وتحريفات لايكاد يخلو منها كتاب نشر حديثاً ولكن الفوائد والحسنات اكثر من غيرها ويستفاد منه امور كثيرة لم نقع عليها في تاريخ قبله وهو مرتب على السنين واهم فصوله ما كان منها متعلقاً بعهد الدولة الفاطمية في الشام ومصر والقسم الاخير من الكتاب متعلق باخبار الحروب الصليبية وربما كان فيهما تفصيل بعض الوقائع التي الم بها صاحب الروضتين في اخبار الدولتين وصاحب الفتح القدسي الماماً خفيفاً لان المؤلف كان قبلهما ووصف كيف انثال الصليبيون الاول على هذه الديار من اوربا قاصدين الى آسيا الصغرى فبلاد الشام . وتوفي ابن القلانسي سنة ٥٥٥ هـ بدمشق وكان تولى رئاستها مرتين وهو من بيت وجاهة وفضل نقل عنه كثير من ثقات المؤرخين امثال الذهبي وابن الاثير وله شعر رائق ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ودفن في

سفح قاسيون . وكتابه هذا وصل به ما فاته هلال الصابي في تاريخه ، واختصر عباراته واخذ منها ما يتعلق بتاريخ الشام عامة ودمشق خاصة

وقد توسع المؤلف في الكلام على عادات اهل هذه البلاد واصولهم وحكامها واحكامهم ودرجة عمرانهم وما اصاب البلاد من الاحداث الجوية والارضية ولا سيما في زمنه وما نال هذه المدينة من عيث المغاربة والمصامدة وهم جيش الفاطميين كما نالها في عهد العثمانيين من مظالم الينكجرية (الانكشارية)

ويستفاد من هذا التاريخ ان ولاية الفاطميين على دمشق كانت الى الشقاء وكثرت فيها المصادرات وتغيير الولاة الذين تبعث بهم مصر فلا يلبثون ان يصلوا حتى يصدر اليهم الامر بالعودة وقد زاد الناشر في الكتاب فوائد مهمة بان حلاه بحواش نقلها عن كتب تاريخية مخطوطة مثل تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي وتاريخ الازرقي وتاريخ سبط ابن الجوزي ومما نقله عن تاريخ سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٦٧ ان اتسز ابن اوق مقدم الاتراك في دمشق الذي ابطل الاذان بحي على خير العمل من هذه الحاضرة) عاد الى دمشق ولم يبق بها من اهلها سوى ثلاثة آلاف انسان بعد خمسمائة الف افناهم الفقر والغلاء والجلاء وكان بها مائتان واربعون خبازاً فصار بها خبازان والاسواق خالية والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها احد والدكان الذي كان يساوي الف دينار لا يشترى بدينار وكان الضعفاء يأتون الدار الجليلة ذات الاثمان الثقيلة فيضرمون فيها النار فتحترق ويجعلون اخشابها حطباً يصطلون به واكلت الكلاب والسنانير وكان الناس يقفون في الازقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم وكان لامرأة داران قد أعطيت فيهما في كل دار ثلاثمائة دينار او اربعمائة فلما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفأر فاحتاجت الى سنور فباعت احد الدارين بأربعة عشر قيراطاً واشترت بها سنوراً اهـ .

وهذا الوصف العجيب المتعلق بتاريخ عمران هذه القاعدة لم يذكره فيما اطلعنا عليه احد من المؤرخين وقد اكتفى ابن الاثير في حوادث سنة ٤٦٨ بقوله انه غلت في دمشق الاسعار حتى اكل الناس بعضهم بعضاً وعدمت الاقوات فبيعت الغرارة (ثمانون مداً من القمح) اذا وجدت بأكثر من عشرين ديناراً .

وانشاء ابن القلانسي جيد وفكره خال من خرافات عصره ولا غرو فالمؤرخون

ملمة بالسواد الاكثر مهما انحطت عصورهم يكونون ارقى منها بمراحل خصوصاً من كان منهم قريباً من الاختلاط بالناس وارباب الرحلات وسبق له ان تولى امور الناس ولم يكتف بالدرس في المدارس امثال ابي شامة وابي الفدا والعماد الكاتب والقاضي الفاضل وابن خلدون وابن منقذ والصابي

تاريخ آداب العرب

لابي السامي مصطفى صادق افندي الرافعي طبع بمطبعة الاخبار في مصر سنة
١٣٣٠—١٩١٢ الجزء الأول صفحة ٤٤٣

مؤلف هذا الكتاب من كبار شعراء هذا العصر المشتهر بالادب منظومه ومنثوره وقد نشر حتى الآن ديوانه في الشعر في ثلاثة اجزاء وديوان النظرات واكثره نثر دع عنك ما اودعه في الصحف والمجلات من مقالاته وقصائده. وهذا الجزء يحتوي الكلام في تاريخ اللغة العربية وتاريخ روايتها وما يداخل هذين البابين وقد بقي من التاريخ عشرة ابواب تقع في اربعة اجزاء اخرى · واذ كان المؤلف ذوق عالٍ في الادب كان الى الاجادة في موضوعه الصعب اكثر من معظم من طرقوا هذا الباب نعم انه لم يأت فيه بمادة جديدة ولكنه صاغ من الموجود عقداً لابأس به وقد عرض المؤلف في من سبقوه الى ورود حياض هذا العلم فقال انه « علم كثرت عليه الايدي واضطربت فيه الاقلام واستبقت اليه العزائم حتى عثرت بها عجلة الرأي وطاحت الاقدام وقد اخصب في الاوهام حتى نفشت في واديه كل جرباء وامتزج اسمه بالاحلام فلم يمس كتابه علماء حتى اصبح قراؤه ادباء على انهم تجاذبوه انتهاباً لما واهياً في وثيقته وتناكروه اعتياناً لخرج ضعيف الشبه بين ظاهره وحقيقته وما منهم الا من يحسب انه اول بالقلم بدء فهو مرمى العنان مخلى له عن طريق السبق الى الرهان » الى آخر ما ذكره في المقدمة وكله تعريض بمن خاضوا هذا البحر على حين كان فيهم جهابذة من ادباء اهل هذا العصر امثال حفني بك ناصف والشيخ محمد المهدي فمدح المؤلف كتابه لا يرفع من قدر الكتاب والمؤلفون كلهم طلاب حقيقة فمن دانى منها منهم بشكره الناس

وقد جعل المؤلف ابوابه اثني عشر باباً تنطوي على جملة الأثور ويدور عليها التاريخ كما تدور السنة على عدة شهور وهذه سياقتها بعد اصلين من التمهيد في تاريخ الادب واصل العرب · الباب الاول في تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك · الباب الثاني

في تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك في الشعر واللغة الباب الثالث في منزلة القرآن الكريم من اللغة وإعجازه وتاريخه وفي البلاغة النبوية ونسق الاعجاز فيها الباب الرابع في تاريخ الخطابة والامثال جاهلية واسلاماً الباب الخامس في تاريخ الشعر العربي ومذاهبه والفنون المستحدثة منه وما يلحق بذلك الباب السادس في حقيقة القصائد المعلقات ودرس شعرائها الباب السابع في أطوار الادب العربي وتقلب العصور به وتاريخ ادب الاندلس الى سقوطها ومصرع العربية فيها الباب الثامن في تاريخ الكتابة وفنونها وأساليبها ورؤساء الكتاب وما يجري هذا المجرى الباب التاسع في حركة العقل العربي وتاريخ العلوم واصناف الآداب جاهلية واسلاماً بالايجاز التاريخي الباب العاشر في التأليف وتاريخه عند العرب ونوادر الكتب العربية الباب الحادي عشر في الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون في النظم والنثر وتاريخ أنواعها الباب الثاني عشر في الطبقات وشيء من الموازنات .

والكتاب منسق مرتب سلس العبارة لطيف الذوق على طبعه وضعه بعض الهوامش وقل فيه من العزو للمصادر التي أخذ عنها على ان معظمها من الكتب المتداولة بالطبع وكان يرجى أن يقتبس المؤلف من المخطوطات الكثيرة في مكاتب مصر ولا سيما في دار الكتب المصرية الخديوية وبعض الكتب العربية المطبوعة في الغرب . وقد وقعت للمؤلف بعض هفوات دعا اليها عدم الرجوع الى الاصول من ذلك ما جاء في صفحة ص ٧٦ في الحاشية من قوله : كان اهل الشام وحوران في ذلك العهد يؤرخون من دخول بصرى عاصمة حوران في حوزة الروم . فيرى القارئ ان حوران ليست من الشام وما هي الا جزء منها فكان الاولى ان يقال كان أهل حوران بل أهل الشام الخ وفي ص ٣١٩ : كانت في بلاد قرامان — قلها القريم — مدرسة مشهورة بمدرسة السلطلة . وبلاد قرامان في الاناضول معروفة في تاريخ العثمانيين ولها ذكر كثير فيه .

وبالاجمال فانا نثني الثناء الاطيب على صديقنا صاحب هذا التاريخ ونرجو له التوفيق الى انجازه على ما يجب ويحب له عشاق الادب

اخبار وافكار

فن الاكل

دعا علماء الحاجيات احد الاطباء ان كتب في المجلة مقالة جاء فيها ان المرء اذا دقق في ميزانية طعامه يستطيع ان يقتصد منها اقتصاداً محموداً بدون اي ضرر يلحق صحته فيتمكن بذلك من النجاة من مخالب المضاربين بالاطعمة ممن يغتنمون مثل هذه الفرص في الصعود فيغالون في مضاعفة اسعارهم ويقال على الجملة ان المرء يأكل اكثر مما تقتضيه حاجته الحقيقية وان فيه ميلاً الى ان يكثر من الاطعمة الغالية ثم ان فقدان التربية البيتية تدعو الى الاسراف حيث لا يجب

وبينما نرى الوقاد يهتم قبل كل شيء بان يعرف حق المعرفة قوة آلته المحركة وما يجب من المواد لادارتها وما تعطيه من العمل ونرى مربي الحيوانات لا يقصر عن درس طبيعة دوابه وما ينبغي لها من العلف وينفع اكثر في تغذية الحيوانات التي يتجر بها نرى الانسان لا يهتم بتة بوظائف اعضائه وما يجب لجسمه

ومن الاوهام الراسخة في التغذية ان المرء يقوى كلما اكثر من الطعام ولذلك ترانا نحاول الاكثار ما امكن من الاطعمة ونحمل ابناءنا على ان يقضموا ويهضموا من الطعام زيادة على رغباتهم ونشاهد الامهات يختلقن انواع الحيل ليجعلن من اولادهن شرهين يتناولون كميات كثيرة من الاغذية ولا يفاخرن بهم الا اذا تناولوا كمية من الحساء بدعوى ان ذلك يكبرهن .

ومن الغريب اننا اذا التقينا برجل متعب في صحته وكثيراً ما يكون الافراط في التغذية السبب في ذلك لا نلبث ان ننصح له ان يتناول اغذية مقوية وانا اذا بحثنا في هذه المسألة عن أمم بنور التجربة والنظر الصحيح نرى ان الاقلال من التغذية بالاقتصار على كمية تقرب من الحد الاوسط اللازم للاعضاء نتيقن ان من يعمل ذلك لا يضعف بل على العكس يقوى

فقد جرب احد اطباء الدانيمرك مدة شهرين الاقتصار من الطعام على ما رخص ثمنه وكثرت تغذيته فاصبح بعد ضعفه قوياً يستطيع التصعيد في النجاد وكان من قبل عاجزاً عن ذلك فكان يتناول في الصباح جريش الشعير مطبوخاً بالماء مضافاً اليه شيء

من اللبن والسكر والعنب وفي المساء يأكل في العادة قطعة من الخبز بالزبدة وسلطة من البطاطة او البقول . وكان طعام الظهر اهم الوجبات وكلها تدور على الحبوب والبقول بين سوائل وموائع وهي بكميتها اقل مما يتناوله الفرد في العادة . وحذا حذوه كثير من زملائه سائرين في ذلك على خطة النباتيين والقدوة في الاقلال من الطعام في الاغلب وقد جرب الاستاذ شيتندن من اميركا الاقلال من كمية طعامه فجادت صحته وقويت اعصابه وكثر نشاطه على العمل ولكنه لم يحذف اللحوم والاسماك من وجبات اكله . ثم جربوها في ١١ جنديًا مدة ستة اشهر فثبتت منافعها بالتجارب والفحص الدقيق وكان الوقت شتاء والبرد قارسًا فلم يشعروا ببرد ولم تنقص قوتهم بل زادت حتى انهم ظلوا بعد هذه المدة سائرين على هذا النحو ثم جربها الاستاذ في جماعة من المصارعين فتبين ان قواهم زادت كثيرًا مما ادهش القائمين على هذه التجارب

وجربوا في فرنسا هذه الطريقة في رجل كان يصاب بوجع الشقيقة فزعم ان شفي كل الشفاء فدام على اقلاله واقتصر على البقول والخضر وعلى القهوة والمربيات واللبن ولم يتناول شيئًا من المشروبات غير الماء الصافي وفي خلال هذه التجربة كان يرتاض بركوب الدراجة فيقطع من ٦٠ الى ٨٠ كيلومترا كل يوم بدون ان يشعر بتعب وقلت ساعات نومه وقويت نفسه على المشاق وسكنت اختلاجه من دون بلاهة . ويفهم من قائمة طعام الطبيب الفلابيمركي الموماليه ان اللحم قليل جداً في وجباته ثم ان الاستاذ شيتندن وصف الاقلال منه وان الآخر كان حذف من طعامه اللبن والبيض واقتصر فقط على البقول

الجزر الطافية

رأت باخرة في صيف سنة ١٨٩٢ في عرض البحر قرب نيويورك جزيرة طافية تقدر مساحتها بالف هكتار مغشاة بالاشجار طول الواحدة منها عشرة امتار وبعد شهرين شاهدت هذه الجزيرة باخرة اخرى قرب ترنوف فتكون قد قطعت في مدة شهرين نحو الف ميل بحري اي ١٨٥٢ كيلومترًا ولم يعد يراها احد بعد . ومن المحتمل ان هذه الجزيرة هي قطعة من ارض ثابتة منفصلة من الشاطئ الشرقي من اميركا حملتها المياه الى بعيد ثم غمرتها وتركيب هذه الجزر قد يحدث من ثقل المياه التي ترتفع بحافات بتأثير المياه القريبة او بسبب آخر . وتكون هذه الجزيرة في العادة ولكن مثلها هو معروف مثل الجزيرة القريبة من وينتغام احد بلاد ولاية ورمون . وتنشأ هذه الجزر

بطبيعتها بدون يد البشر واحياناً تكون في بحر الشمال من الجليد الذي يتكسر. ومنها الصناعي ينشأ كما هو الحال في اميركا من عمارة السدود والسكورات تحدث تغييراً غير منتظر في معدل المياه . في بعض الجهات نرى جزراً تطفو ثم تغيب في اوقات معينة فان كتلة من الحشائش قد تغمر بحيرة برمتها الا قليلا فاذا ارتفعت المياه تنفصل هذه الكتلة عن البحيرة ويكون منها جزيرة طافية ثم تعود المياه فتغمرها وهكذا لاترى الجزيرة الا متى انحسر الماء او يحدث سبب سابق يرفع الجزيرة فتراها العيون

الخبز

عرضت الحكومة الانكليزية الى الدكتور هاتشيل ان يقدم تقريراً عن الخبز فاثبت ان الطرق الحديثة المستعملة في طحن الدقيق في مطاحن اسطوانية ليست احسن من الطريقة القديمة في طحن الطحين بين حجرين ولكن هذه الطريقة القديمة لاتصلح لطحن حنطة اميركا الصلبة واقام الحجة على من يدعي ان الخبز الاسمر انفع للصحة من الابيض وقال بتفضيل الاخير على الاول في التغذية ورأى ان يعطى الاطفال خبزاً ابيض وشيئاً من الخبز الذي لم يقطع وفيه شيء من القشرة الاصلية وذلك للاولاد الذين يجعلون الخبز اهم غذائهم لا لمن يتناول اللحم والبقول

نقل الدم

كان بعض الاطباء ينقل الدم من جسم الصحيح الى جسم العليل بواسطة أدوات غير معروفة عندهم ولكن كان الدم المنقول لا يخلو من تكورات مضرة وقد اخترع الآن احد أطباء نيويورك آلة غريبة تنقي الدم المنقول الذي يحقن به باضافة شيء من الاوكسيجين ومحلول قلوي والحديد في الماء فجرب ذلك في الضفادع والكلاب اولاً ثم جرب في المستشفيات في الآدميين فاسفر عن نتائج حسنة جداً

دين مجهول

اكتشفوا في جبال هوندوراس Honduras مجموعة اشياء من قبل التاريخ تدل على وجود عبادة غير معروفة اليوم وذلك في مكان ظنوه اولا معدن نحاس مهجور فرأوا معابد مقدسة تدل على وجود ديانة كانت موجودة منذ الوف من السنين وان اهلها الناس Mayas وهم شعب قديم جداً كان يعبد الخفافيش وهذه الاشياء هي أجراس صغيرة تبلغ عشرة آلاف جرس ذات

حجم مختلف واشكال كثيرة وهذه الاجراس يشبه الصغير منها ازراراً عادية والكبير منها الاجراس الصغيرة او سقاطة الباب ومن الغريب ان أصوات كل جرس تختلف بعضها عن بعض وفي المغارة صور ايضاً يظن انها كانت من متممات العبادة وعرض مدخل المغارة نحو عشرة امتار وعمقه ١٨ متراً الى ٢٠ والاجراس مبددة هنا وهناك ومنها ما وضع في بعض الثقوب والجحور واكبرها لا يكون حجمه عشرة سنتيمترات من الجانبين ومن هذه الاجراس ما يشبه الحيوانات الغليظة ومنها ما يشبه السلاحف ذات العنق الطويل ومنها ما هو على صورة التنين الزحاف ومخلوقات غريبة ومنها ما يشبه الخفاش ذات القرون والعيون المفترسة وغيرها من الحيوان ومن هذه الاجراس ما هو معمول من المعدن المطروق ومنها من المعدن المطرق ومما دل ان المغارة كانت ملجأ لرهبان كان يتعبدون لرب اسمه زوتيا شيكان ورد ذكره في التقاليد وكان له على امة المايا سلطة غريبة ولعل علماء الآثار يهتدون الى سر هذه الموجودات لقرب عاصمة تاكو القديمة من بلاد هوندوراس لانه ورد ذكر تلك العاصمة في تاريخها .

البصل

استعمل بعض الاطباء البصل مؤخراً لمريض أصيب بضعف الكبد المشوش في الاستسقاء فابان عن احسن النتائج وسهل البول بحيث لا يتأتى ذلك بالادوية المعتادة وهذا ما دل على بعد نظر القدماء في الطب القديم في ثنائهم على البصل فقد كان اطباء المصريين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين يحلون استعماله المحل الارفع وكان جند قيصر يتناوله في سيره اثناء قتاله الغول وشاع استعماله في اوربا من اواخر القرن السابع عشر الى اوائل القرن التاسع عشر في مداواة وجع المفاصل والرئية وامراض الصلب اما في الطب الحديث فقد ترك استعماله بتاتاً وها هم قد عادوا اليه

الحكم على فرنسا

طاف المستر اديسون المخترع الاميركي الشهير بلاد اوربا فنقل رأيه عن فرنسا فاصدر الحكم الآتي : ان مساكنها فسيحة لا راحة فيها ولا رفاهية وهي متأخرة عن بيوت الاميركان قروناً وفرنسا فائقة بطرقها البديعة التي تربط قراها وبلاد الاقاليم فيها بالحواضر والمدن وعلى مهندسي الممالك الاخرى ان يأتوا فرنسا ليتعلموا بها على مهندسيها احسن دروس في صناعتهم اما طبخ الفرنسيس فقد حوى الذوق وجودة الطعم وحسن

الاسلوب بحيث جاء مطبخهم افضل مطابخ الامم المتمدنة وهذا ما دعا الى علو كعب الفرنسيس فبجودة الطعام ضمنوا لبلادهم الصحة وحسن الخلق والنجاح

التلغراف اللاسلكي

افاد هذا التلغراف في مواطن كثيرة وثبت نفعه في الدول والافراد فعزمت انكلترا ان تمد منه خطين الاول يسير من مالطة وقبرص وعدن وبومباي وسنغافورة وادلايد وزيلاندة الجديدة واثنان آخران يسيران في شاطئي افريقية من الشرق ومن الغرب فتتصل الهند بافريقية الجنوبية واوستراليا بجزيرة موريس وجزيرة نيلسون ومونترال باراض الهند الغربية قريباً فيكون لها ٢٥ محطة تحتاج الى ٣٧ مليون ونصف مليون من الفرنكات يخابر بها الناس كل كلمة بعشرة سانتيمات وتربح منها الحكومة ١٥ مليون فرنك سنوية ولا تنفق سوى ٥ ملايين

الالكحول في افريقية

يحاول عقلاء الانكليز ان يحظروا استعمال المشروبات الروحية في بلاد خط الاستواء وجنوبي افريقية وذلك بوضع العقبات في سبيلها لانه ثبت انها آذت الوطنيين بصحتهم وقرض او كاد جنسهم وكانوا قبل دخولها عليهم سالمين الوباء. وما كانوا من قبل يسكرون الا بالمشروبات الخمرية المستخرجة من ماء النخل وجوز الكاكاو والذرة وهي مشروبات يقل ضررها بالنسبة لخمور اوربا ولذا اخذ زعماء الوطنيين يدعون الى الاسلام لانه يحظر استعمال المكيفات اذ قد وقع في نفوسهم ان عنصرهم آخذ من هذه الالكحول بالانحطاط. ويقول المقترح ان هذا الحظر واقع على الحكومة الانكليزية لان تلك الاقاليم الاستوائية تكتفي من المنبهات بالقهوة وجوز الكولا وهي اقل ضرراً من الجين والويسكي. واذا منعت الحكومة الانكليزية المسكرات من تلك الاقاليم الافريقية تخسر ثلاثمائة الف جنيه كل سنة من جنوبي نيجيريا فقط وستعتاض عن هذه الرسوم التي تنقص ميزانيتها بضرب ضرائب على الانفس

الصحافة الصفراء

يسمون بهذا الاسم الحديث تلك الصحف الاميركية التي تنشر اخباراً مزعجة والحوادث مختلقة تقيم وتقعد والحال ان هذا النوع من الصحافة قديم يرد عهده في الحقيقة الى يوم قام بنيت مؤسس جريدة نيويورك هرالد واعلن انه سيتخلى عما يسمونه بالمبادئ ويبحث خاصة فينشر قبل رصفائه اخباراً كثيرة وحوادث اليوم مفصلاً لها

يقال وسب في ماله دخل الحوادث البيوت وتعدى الناشطين والمارقين والقاتلين والعبارة التشخصية فما كاد يطلق هذه الغلبة في العمل حتى صدمه الناس بالسباب والضرب عنيفة بالسياط وما كان يجيب على ذلك بغير ضجة خاصة من جريدته بعض فيها عثره الشديد بالفارس مايكاره جمهور قراء الجملة الرعيه في ذلك صاحب جريدة الورلد . والغرابة هذا الضرب من الصحف اليوم أحاديث بعضها ، وهو دواريخ حكايات وطلاقات وفضائح وفظائع وسية اعداد ابناء الاعداد وفي اكبر حجماً والمزوجات تمثل بصور بالالوان وكثير من الاخبار اكثر من المادة وعبارات من شأنها ان تحدث تأثيراً شديداً وحركة اضطراب في القراء وتحبب اليهم الفضول والفزع . وقد اشارت الصحف الصفراء في سرد الحكايات فلا تكتفي ان تورد أقوالها الكثيرة وانما عن الحال المخصوص في الخلاف مضروبا ان تعلمهم أيضاً الطرق الغريبة في القتل والسرقة . وهذه هي سيئات هذه الصحافة ولكن لها مزية أخرى هي انها داعية إلى الكثير داعية الارتقاء والاصلاح الاجتماعي تصرف خدمة الصحافة العامة مستقلة في تفكيرها تعمل في الرشوة حملات هائلة تنقد الاحتكار وتكشف الاثام عن اعمال رجال السياسة وفضائحهم وتقاوم الحكومة الاوتوكراتية والامتيازات فهي خادمة أمينة الديمقراطية من هذا الوجه

ملح تونس

ليست لنا ارض تونس بطبيعتها قابلة لاخراج الملح الصافي الذي هو اليوم تملح الاحصاءات التي تعاد من شمال اوربا اكثر من الاملاح التي تستخرج من صقلية واسبانيا والبرتغال بل هو احسن ملح في العالم لانه خال من المواد الغازية الثقيل والمستخرج منه الآن خمسمائة الف قنطار في السنة يخرج منها ٢٠٠ الف الى ايطاليا و ١٢٠ الفاً الى روسيا و ١٠٠ الف الى بلغاريا و ٣٠ الفاً الى فرنسا والباقي من القناطير تصدره تونس الى الجزائر وغيرها ويمكن ان يستخرج من هذا الملح سنوياً مليون طن واستخراجه متوقف على اعطاء امتياز من حكومة تونس

الأمومة والمروءة

قد رأت بعض الولايات المتحدة ان زيادة المواليد في اميركا الشمالية ليست مما يرضي وان المهاجرين اليها يقل نسلها في الجيل الثاني من مقامهم فيها رأت ان تعمد الى قوانين سنتها لاكثار النسل وهكذا قرر مجلس نواب ايلينوا ان كل امرأة تلد بعد

سنتين من زواجها ولداً تقبض ٥٠٠ فرنك وتقبض مثل هذا المبلغ كلما ولدت ولداً آخر اما اذا ولدت توأمين او ثلاثة فجائزتها تكون اكثر والحكومة تعطي هذه الجوائز من العزب فتأخذ من كل عزب تجاوز الخامسة والثلاثين ولم يتزوج خمسين فرنكاً في السنة ويناقش مجلس النواب في ولاية ويسكونسين في ضرب ضريبة قدرها خمسة وعشرون فرنكاً في السنة على كل امرأة بلغت الخامسة والعشرين ولم تتزوج وربما ألفت هذه الولاية لجنة رسمية لتجد زوجاً لكل خاطبة

التعليم في بورتوريكو

بورتوريكو جزيرة في ارخبيل البحر المحيط غربي هايتي سكانها زهاء مليون نسمة لم يكن فيها سنة ١٩٠٧ خزانة كتب بتة وها قد اصبح فيها اليوم ٢٣٣ خزانة كتب عامة ومذ استولت الولايات المتحدة على هذه الجزيرة لم يكن فيها مدارس اما اليوم فقد بلغ عدد من يتعلمون من بنيها ١٢١٤٥٣ اي نحو تسع السكان وفي مدارس حدائق الاطفال (الكندر غارتن) ٢٣٠ طفلاً وفي المدارس الابتدائية التي أنشئت في ٦٦ مدينة من مدن الجزيرة ٣٩٦٩٠٧ تلامذة وفي مدارس القرى ٩١٦٣٠ وفي ٥٨ مدرسة ليلية ٨١٦٢٤ تلميذاً تلامذتها من البالغين وعدد تلامذة المدارس العالية ١٠٧٨ وعدد تلامذة كلية سان جوان ٣٠٠ وقد انشئت هذه الكلية في ريو بدراس في الجزيرة على ١١ كيلومتراً من سان جوان وفيها مدرسة للزراعة واخرى للصناعات الحرة وغيرها للمعلمين يتعلم فيها المعلمون والمعلمات . ولا تزال الحكومة في قرى بورتوريكو تعلم اللغة الاسبانية وقد بدأت تعين اساتذة من ابناء الجزيرة نفسها ولكن معظم المعلمين يأتون من الولايات المتحدة وتسعة اعشار التلامذة يتعلمون العلوم اليوم بالانكليزية وعما قريب تقوض اللغة الاسبانية خيامها من تلك الجزيرة وتحل محلها اللغة الانكليزية الى ابد الآبدين

مدارس الامهات

أنشأوا في الغرب مدارس لتعليم الامهات ما يستطيعون معه دفع المهالك عن اولادهم وتقوية اجسامهم وحفظ صحتهم اذ قد ثبت ان جهل الامهات كثيراً ما يودي بالبنين والبنات وهذه المدارس تزداد انتشاراً في مدن اوربا